الطبعة الرابعة

عظماء

لا نعرفهم

تأليف

نايف بن منصور الجعويني

لأصحاب الهمم العالية في شتى مجالات الحياة :
بين يديكم **عظماء لا نعرفهم** لا تقل قصصهم روعة ولا جمالا عن عظماء المسلمين الذين تعودنا سماع أسمائهم.

فيا أيها الإنسان .. إن عظمتك ليست بمنصبك، فكم من صاحب منصب تقلبت أحواله، وعظمتك ليست بثروتك، فكم من صاحب ثروة شتت الله ماله، وعظمتك ليست بحسبك ونسبك، فكم من قبيلة تبعثر شملها حتى أصبحت أثراً بعد عين.

في هذا الكتاب لمحة من تاريخنا الإسلامي المشرق لسير **عظماء لا نعرفهم** أمراءَ وقضاة, وزراءَ وعلماءَ, بسطاءَ وفقراءَ, رجال ونساء, سطروا أروع القصص الملهمة في البطولة والتضحية والإخلاص.

ومن كان يظن أن عظماء الإسلام فقط هم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وعمر بن عبدالعزيز وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وبقية الأسماء المشهورة فإنه مخطئ , لإن في تاريخنا .. **عظماء لا نعرفهم** .



عظماء لا نعرفهم

نايف بن منصور الجعويني

عظماء لا نعرفهم

تأليف

نايف بن منصور الجعويني

ⓒ نايف منصور عبدالله الجعويني ، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجعويني، نايف منصور
عظماء لا نعرفهم. / نايف منصور الجعويني – الرياض، ١٤٣٨هـ
(٢٨٤ ص)؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٦-٢٧٥٥-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١ - التراجم أ. العنوان
ديوي : ٩٢٠ ١٤٣٨/٥٧٢هـ

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٥٧٢
ردمك : ٦-٢٧٥٥-٠٢-٦٠٣-٩٧٨



قال رسول الله ﷺ :

« إن مَثل أُمَّتِي مَثل الْمَطَرِ لا يُدْرَى أَوَّلهُ خَيْرٌ أُمْ آخِرُهُ »

مسند الإمام أحمد

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. لطالما كانت قصص كبار عظماء الإسلام عبر التاريخ نبراساً للأمة نرثها جيل بعد جيل، ويحفظها الكبير قبل الصغير، فمن منا لا يعرف سيرة أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذي النورين، وأبي السبطين علي، وسيد الشهداء حمزة، وسيف الله خالد، وطلحة، والزبير، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح ؟ ﷺ جميعاً ورحمهم الله.... والقائمة تطول وتطول.

كنت أتساءل دوماً بداخلي: كيف استطاع هؤلاء الأفذاذ أن يسطروا مثل هذه البطولات التي أبهرت الدنيا ؟ فكان الجواب يأتي بذهني سريعاً، بعد توفيق الله ونصره: إنه التعاون على البر والتقوى.

كان من أقدار الله المباركة لهذه الأمة أن تعيش عصوراً ذهبية تكاتف فيها الجميع على البر والتقوى يداً بيد، لهدف سام نبيل وتشاركوا جميعاً لتحقيقه، فخرج من بينهم أبطال عظماء نسب لهُم كل فضل وهم أهل لذلك.

لكن يدور في الذهن تساؤل: ما بال أبطال وعظماء كانوا خلف الستار فاختفت قصصهم ؟ وكيف انطوى ذكر جنود مجهولين كانت تضحياتهم لا تقل روعة ولا شجاعة عن تضحيات وشجاعة قادتهم ؟

يا ترى من هم هؤلاء الذين لا نكاد نعرف لهم أسم ؟

فحين حشد الملك الإسباني لذريق مائة ألف مقاتل لسحق اثني عشر ألف مسلم قدموا لفتح الأندلس استطاع هذا العدد القليل بقيادة طارق بن زياد الانتصار في هذه المعركة التاريخية التي غيرت خريطة العالم، وخَلد التاريخ اسم طارق بن زياد كبطل أسطوري لا يشق له غبار.

لكن ما بال الاثنى عشر ألفاً الذين كانوا معه ؟! ما أسماؤهم ؟!

لكل منهم قصة، ولكل منهم بطولة، ولكل منهم تضحية، ولكل منهم أسرة وأطفال تركهم خلفه، ولكل منهم شجاعة وإقدام لا تقل عن شجاعة وإقدام قائدهم طارق.

ولولا الله ثم هؤلاء الأبطال المجهولون لما استطاع طارق الانتصار في أي من معاركه، ولكن كما جرت سنة الله في أرضه وكما درجت عليه عادة التاريخ يبقى خلود الذكر دوماً للبعض دون الكل.

وإذا استعرضنا عظمة السيرة بمفهومها الشمولي الواسع بعيداً عن المعارك والفتوحات، فكم من عظيم عبر تاريخنا الإسلامي العريض اندثرت شهرته ؟ وكم من عظيم ولد فقير ولم يكن ابن ملوك، ولا صاحب منصب فاختفى أثره ؟ وكم من عظيم لم تساعده الظروف والأحوال فتبخرت سيرته ؟

في هذا الكتاب جهد متواضع حاولت فيه بشكل مختصر تسليط الضوء على **عظماء لا نعرفهم**، لا تقل قصصهم روعةً وجمالاً عن سيرة من تعودنا سماع أسمائهم منذ الصغر، ليس بالضرورة أنهم استطاعوا تغيير العالم بأسره وليس بالضرورة أنهم فتحوا البلاد والأمصار، ولكن حسبك أنهم

استطاعوا التغلب على حظوة النفس وسطروا لنا صفحات مشرقة ملهمة.. ولعَمري إن في قصصهم لعبرة.

في هذا الكتاب ذكرٌ لبعض عظماء الإسلام ممن أندثر ذكرهم أو لم تشتهر سيرتهم، مجاهدون وصابرون وأصحاب همم، وآخرون ضربوا أروع صور التضحية والتفاني والإخلاص، من عصور مختلفة، حكام وأمراء، وزراء وقضاة، قادة وجنود، مخترعين وعلماء، بسطاء وفقراء، رجال ونساء، ربما قد مر عليك ذكر بعضهم مرور الكرام، وربما كانت شهرة أحدهم لا تتعدى حدود بلد معين.

ولعل هذا الجهد البسيط المتواضع يكون محفزاً لي ولغيري لبداية سلسلة للبحث في سير **عظماء لا نعرفهم**، نترحم عليهم، ونستلهم من قصصهم العظة والعبرة ولتكون هذه السير والقصص الملهمة نبراساً لنا ولأجيالنا القادمة، ونسأل الله القبول والتوفيق والسداد... وأتمنى لكم قراءة ممتعة.

نايف بن منصور الجعويني

١٤٣٧/١٢/٣٠هـ

٢٠١٦/١٠/١م



الأمير الفارس جورج ..

١٥هـ

٦٣٦م

دخل الحرب كافراً واستشهد فيها مسلماً

الأمير الفارس جورج (رحمه الله)

١٥هـ

٦٣٦م

دخل الحرب كافراً واستشهد فيها مسلماً

يعتبر بعض المؤرخين معركة اليرموك من أهم معارك التاريخ حيث إنها أول معركة للمسلمين خارج الجزيرة العربية، وهي بداية انطلاق الإسلام من الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي.

احتشد جيش المسلمين في الشام عند نهر اليرموك وقوامه ستة وثلاثون ألف فيهم جمع من الصحابة - رضوان الله عليهم - بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد، وبالمقابل أحتشد جيش الروم بمائتين وأربعين ألف مقاتل يرفعون الصليب وبرفقة رهبانهم يقرئون عليهم الإنجيل ويحثونهم على القتال.

اصطف الجيشين قبل بداية القتال لأيام وكِلا الطرفين يرتب الصفوف ويتجهز لبداية المواجهة للمعركة التاريخية الفاصلة، وبينما هم كذلك إذ خرج من بين الروم قائد عظيم من فرسانهم وأمير من أمرائهم اسمه جورج[١] فصاح في المسلمين أين خالد بن الوليد ؟... فليخرج إليَّ خالد.

(١) بعض المصادر تذكر أسمه جورجه، وفي البداية والنهاية لابن كثير جرجه.

فسل سيفَه خالد وانطلق إليه والتقى به في منطقة فاصلة بين الجيشين واحتبست الأنفاس وكِلا الجيشين يراقب ما ستؤول إليه هذه المنازلة بين الأميرين، واقتربا من بعضهما حتى اختلفت أعناق فرسيهما وكل منهم رافع سيفه وممسك بدرعه، فقال جورج: أمِّني يا خالد فإني سائلك، ثم أخفض سيفه فأخفض خالد سيفه.

قال له خالد: سل ما شئت، وكان كل منهما ممسكاً بدرعه جيداً يخشى خيانة الآخر.

فدار بينهما هذا الحوار العجيب :

جورج: أصدقني يا خالد فإن الحر لا يكذب، ولا تخدعني فإن الكريم لا يخدع، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه لك، فلا تسله على أحد إلا هزمته ؟

خالد: لا لم ينزل الله علينا سيفاً من السماء.

جورج: فبم سميت سيف الله ؟

خالد: إن الله تعالى بعث فينا نبيه، فنفرنا عنه ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وقاتله وكذبه فكنت ممن باعده وقاتله وكذبه، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «أنت سيف من سيوف الله أرسله الله على المشركين ودعا لي بالنصر»، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين بدعوة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لي بالنصر وبأن سماني سيف الله المسلول.

جورج: صدقتني ؟!... إلى ماذا تدعوني ؟

خالد: أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء من عند الله.

جورج: فمن لم يجبكم إلى ذلك ؟

خالد: فعليه الجزية ونمنعه.

جورج: فإن لم يعطها ؟

خالد: نؤذنه بحرب ثم نقاتله.

جورج: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم على هذا الأمر اليوم ؟

خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا.

جورج: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر ؟

خالد: نعم وأفضل.

جورج: وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات وحق لمن رأي ما رأينا وسمع ما سمعنا ويبايع وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

جورج: بالله لقد صدقتني ولم تخدعني ؟

خالد: تالله لقد صدقتك وإن الله ولي ما سألت عنه.

فعند ذلك قلب جورج الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام[٢].

فذهب مع خالد إلى معسكر المسلمين، فصب عليه قربة من الماء، ولقنه الشهادتين وصلى به ركعتين، وكل هذا وجيوش الروم تنظر، وقد أغاظها ذلك جداً وأثر على معنوياتهم جداً.

فما إن بدأ القتال إلا وجورج يقاتل مع المسلمين جنباً إلى خالد طوال المعركة في منظر تحيرت منه العقول، واستمر القتال حتى ارتفعت الشمس، وصلى المسلمون صلاة الظهر والعصر إيماء، وأصيب جورج في القتال في آخر النهار، واستشهد في المعركة التي بدأها كافراً واستشهد فيها مسلماً، وهو لم يصل لله إلا تلك الركعتين التي صلاها مع خالد رضوان الله عليه، فقال خالد: سبحان الله عمل قليلاً واجر كثيراً هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

فرحم الله جورج ورضي الله عن خالد وعن باقي الصحابة أجمعين.

* * * *

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج٧، ص١٢-١٣.



طريف بن مالك (رحمه الله) ..

٩٢هـ

٧١١م

المهمة المستحيلة

طريف بن مالك (رحمه الله)

٩٢هـ

٧١١م

المهمة المستحيلة

كي نبدأ بقصة هذا البطل المقدام لا بد من المرور على قصة فتح الأندلس بشكل سريع وموجز، عندما اشتد ظلم الملك لذريق في إسبانيا، وساد القهر والظلم على المستضعفين هناك، وفرضت عليهم الضرائب الكبيرة، وكان الملك لذريق يملك جيشاً ضخماً يُشكل تهديد للدول الإسلامية[١]، من هنا قرر المسلمون فتح الأندلس، فأرسل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك البطل الفذ المشهور طارق بن زياد الذي عبر بجيشه مضيق البحر الأبيض المتوسط، ودخل جيش الإسلام الأندلس من جهة الجنوب الإسباني.

وكان قوام الجيش سبعة آلاف جندي معظمهم من المسلمين الأمازيغ (البربر)، وما إن اكتمل العبور حتى تجمع الجيش الإسلامي عند جبل صخري عرف فيما بعد باسم جبل طارق، بدأ بعدها زحف جيش المسلمين متوغلاً في الأراضي الإسبانية وسقطت أمامهم كل الحصون والقلاع والمدن والقرى، وكأنهم سيل جارف لا يوقفه شيء.

---

(١) أطلس تاريخ الدولة الأموية، سامي المغلوث، ص١٧٨.

سرعان ما وصلت هذه الأخبار الكارثية للملك لذريق الذي على الفور جهز جيشاً ضخماً قوامه مائة ألف مقاتل بكامل العتاد والعدة، وكان على يقين أنه سيبيد كل من تجرأ ودخل الأراضي الأسبانية، فلما بلغت هذه الأخبار القائد طارق بن زياد كتب إلى موسى بن نصير - الذي كان مرابطاً في المغرب يتتبع الأخبار - يطلب منه المدد بالمقاتلين فأرسل إليه موسى بن نصير جيشاً قوامه خمسة الآف مقاتل، فبلغ جيش المسلمون بذلك اثني عشر ألفاً فقط[٢].

فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة شذونه، وكان ذلك في يوم ٢٨ رمضان من عام ٩٢هـ الموافق ١٨ جولاي ٧١١م، واستمر القتال ثمانية أيام وثبت المسلمون في المعركة كالجبال الرواسي، وخاضوا ملحمة تاريخية سطرها التاريخ حتى هزموا الجيوش الصليبية الضخمة، ومزقوا جيش الملك لذريق، وأسقطوا مُلكه، ولم يُعثر عليه بعد المعركة واختفى أثره ويبدو أنه مات بالمعركة، أو غرق في أحد الأنهار المجاورة في محاولته للهروب.

بعد هذا الانتصار العظيم واصل جيش طارق إكمال الفتح، فاتجه شمالاً حتى اخترق الأراضي الإسبانية لمسافات بعيدة، واستشهد نصف الجيش الإسلامي لقاء كل هذه المعارك الطاحنة، بعدها عبر موسى بن نصير البحر، ومعه ثمانية عشر ألف مجاهد، وانضم لجيش طارق بن زياد، ليعزز من قوته لإكمال فتح كامل إسبانيا، وخلال ثلاث سنوات من الجهاد المستمر تم فتح كامل البرتغال، وأغلب إسبانيا وأجزاء من فرنسا، وهنا أرسل الخليفة الوليد بن عبدالملك رسولاً من عنده يحمل كتاباً فيه أمر

---

(٢) أحمد تمام، معارك وغزوات، إسلام أون لاين.

صارم بوقف الفتح، وعودة موسى بن نصير إلى دمشق، والسبب وراء ذلك هو خوف الخليفة على المسلمين إذ نما إلى علمه خبر يفيد بأن موسى بن نصير قد عقد العزم على العودة إلى دمشق عبر أوربا مروراً بالقسطنطينية ليفتحها، وبذلك يُكمل فتح أغلب أوربا، وتجاه أمر الخليفة حاول موسى ابن نصير الذي كان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره أن يقنع الرسول بالتريث إلى أن ينتهي من فتح مكان في أعالي الجبال لجأ إليه القوط[٣] يسمى صخرة بلاي لكن رسول الخليفة رفض ذلك[٤].

بعد هذا السرد السريع من المؤكد أن الجميع قد سمع من قبل عن طارق ابن زياد وموسى بن نصير وعن بطولاتهم في الأندلس واسردنا جزء يسير منها بهذه المقدمة السريعة والسؤال الآن :

- **من يكون طريف بن مالك ؟**

طريف بن مالك هو قائد عسكري بربري أمازيغي وهو أول من دخل الأراضي الإسبانية ترأس أول سرية شكلت أولى طلائع المسلمين الذين فتحوا الأندلس، وله قصة ملهمة ملؤها الإقدام والشجاعة، وبفضل الله ثم بفضل ما قدمه طريف ورفاقه تحقق كل هذا الفتح العظيم، وظل الإسلام في الأندلس ثماني قرون.

بدأت القصة بأن احتشد الجيش الإسلامي في المغرب وهم لا يعلمون أي شيء عن إسبانيا، ففي ذاك الزمن لا يوجد وسائل اتصال سريعة ولا إنترنت ولا صور فوتغرافية ولا أقمار صناعية.

---

(٣) قبائل صليبية.

(٤) أطلس تاريخ الدولة الأموية، سامي المغلوث. ص١٩٠.

فعبور البحر لمنطقه مجهولة فيه مغامرة كبيرة للجيش وهي أشبه في الانتحار، فتقرر إرسال طريف بن مالك على رأس سرية قوامها خمسمائة جندي فقط في عملية فدائية كان يحتمل جداً عبورهم للبحر بلا عودة.

فكما ذكرنا من قبل أن جيش الملك لذريق تعداده مائة ألف مقاتل بكامل العدة والعتاد فماذا كان سيفعل خمسمائة جندي أمام هذه الحشود الضخمة لو وقعوا بين أيديهم !

ونفذ طريف ورفاقه المهمة بكل شجاعة وبسالة، وعبر البحر بجنوده في أربعة مراكب، فنزلوا في أقصى جنوب إسبانيا في منطقة اسمها حتى يومنا هذا مدينة طريف[٥]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل استطاع الاغارة على الأسبان وتذكر الروايات أن طريفاً وجنوده اشتبكوا مع الأسبان، وغنم منهم غنائم كثيرة من أموال وأمتعة وأسرى وعاد بهم جميعاً للمغرب.

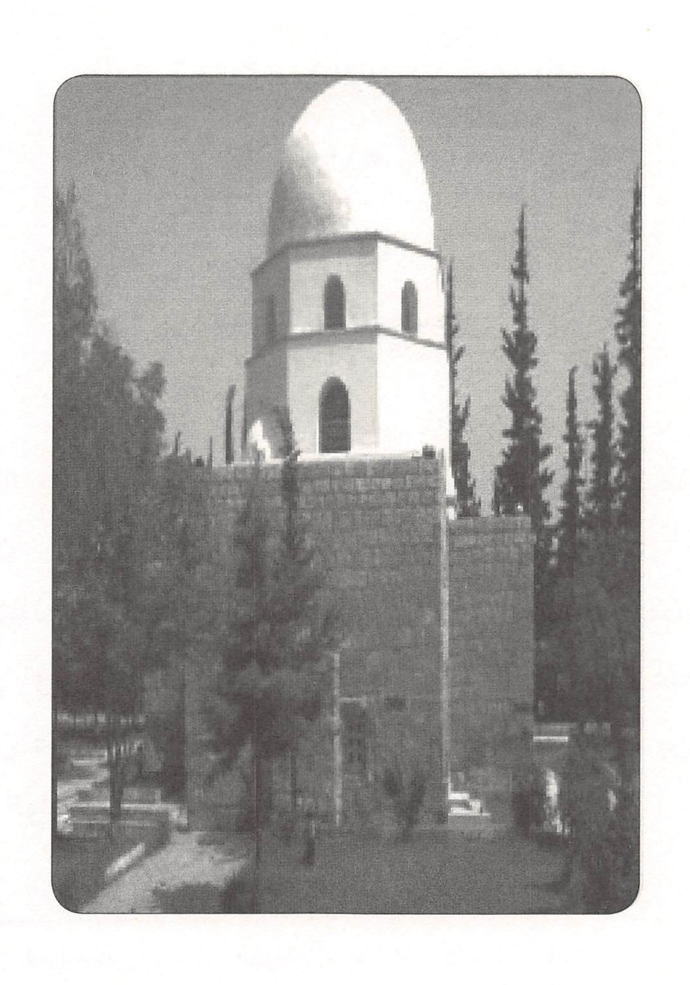
وعاد طريف للمغرب، وقد درس أحوال المنطقة وتعرف على مواقعها وأرسل بعض جنوده إلى عدة أماكن منها جبل طارق، فكانت هذه المعلومات عوناً على وضع خطة الفتح[٦].

فرحم الله هذا البطل الشجاع ورحم الله جنوده الأبطال، وجزاهم الله عن المسلمين خير ما يجزاه.

* * * *

(٥) TARIFA أقصى جنوب إسبانيا ومساحتها ٤١٩ كم مربع.

(٦) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة. د. عبدالرحمن الحجي، ص٤٥.



فاطمة بنت عبدالملك (رحمها الله) ..

١٠٥هـ

٧٢٤م

سيدة القصور

فاطمة بنت عبدالملك (رحمها الله)

١٠٥هـ

٧٢٤م

سـيـدة الـقـصـور

ما ظنك بامرأة الخليفة مروان بن الحكم[(١)] جدها والخليفة عبدالملك ابن مروان[(٢)] أبوها، وأخوانها الخلفاء الوليد بن عبدالملك[(٣)]، وسليمان ابن عبدالملك[(٤)]، وهشام بن عبدالملك، والخليفة عمر بن عبدالعزيز[(٥)] زوجها ثم تولى الخلافة بعده أخوانها الخلفاء يزيد بن عبدالملك[(٦)]، وهشام بن عبدالملك[(٧)]، ثم أبناء أخواتها الخلفاء الوليد بن يزيد[(٨)]، ويزيد بن الوليد[(٩)]، وإبراهيم بن الوليد[(١٠)].

---

(١) مروان بن عبدالحكم رابع خلفاء الدولة الأموية (٦٤ - ٦٥هـ). (٦٨٤ - ٦٨٥م).

(٢) عبدالملك بن مروان خامس خلفاء الدولة الأموية (٦٥ - ٨٦هـ)، (٦٨٥ - ٧٠٥م).

(٣) الوليد بن عبدالملك سادس خلفاء الدولة الأموية (٨٦ - ٩٦هـ). (٧٠٥ - ٧١٥م).

(٤) سليمان بن عبدالملك سابع خلفاء الدولة الأموية (٩٦ - ٩٩هـ). (٧١٥ - ٧١٧م).

(٥) عمر بن عبدالعزيز ثامن خلفاء الدولة الأموية (٩٩ - ١٠١هـ)، (٧١٧ - ٧٢٠م).

(٦) يزيد بن عبدالملك تاسع خلفاء الدولة الأموية (١٠١ - ١٠٥هـ)، (٧٢٠ - ٧٢٤م).

(٧) هشام بن عبدالملك عاشر خلفاء الدولة الأموية (١٠٥ - ١٢٥هـ)، (٧٢٤ - ٧٤٣م).

(٨) الوليد بن يزيد حادي عشر خلفاء الدولة الأموية (١٢٥ - ١٢٦هـ)، (٧٤٣ - ٧٤٤م).

(٩) يزيد بن الوليد ثاني عشر خلفاء الدولة الأموية (١٢٦ - ١٢٦هـ). (٧٤٤ - ٧٤٤م).

(١٠) إبراهيم بن الوليد (١٢٦ - ١٢٧هـ)، (٧٤٤ - ٧٤٤م).

يقول المؤرخون: عبر التاريخ لم يجتمع المُلك لامرأة كما جُمع لفاطمة بنت عبدالملك.

يقول فيها الشاعر :

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلائف والخليفة زوجها

فما هي قصة هذه المرأة العظيمة ؟

لك أن تتخيل امرأة ولدت وتربت في بيت الملك بهذا الشكل، فكم من النعيم والخدم والجواري رهن إشارتها، وكم من الجواهر والأموال والنعيم بيدها !

من المؤكد أنه يصعب علينا وصف ذلك بدقة، ولكن حينما تقرأ سيرتها لا يسعك إلا أن تقول: سبحان من خلق الكمال وخلقها.

كانت من أحسن النساء جمالاً وهي الحسيبة النسيبة من منبت الخلافة، ربيبة القصور، كانت ذا عقل راجح وتَدين عظيم وخُلق رفيع وتواضع جم، قلما نجد لها نظير، شبت يافعة بجمالها القرشي، وهفت نحوها قلوب الأمراء الأمويون يطرقون بابها خطاباً راغبين، لكن والدها تاقت نفسه لأفضلهم عقلاً وأنبلهم خلقاً فاختار لها ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز، فازداد بذلك الحسن حسناً.

ودارت الأيام حتى تولى زوجها الخليفة الزاهد الراشد عمر بن عبدالعزيز الخلافة بعد أخيها، فكانت له نعم الزوجة العاقلة الصابرة والمعينة، وأصبحت مضرب المثل في الحكمة وحسن المعشر، ولنستعرض بشكل سريع بعضاً من مواقفها ولا يمكن أن يكون لنا ذلك بدون التطرق لزهد زوجها الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز (رحمه الله).

فبعد ثلاثة أيام من توليه الخلافة دخل عليها الخليفة الجديد وقد أنهكه التعب والسهر على مصالح الرعية وقال لها: يا فاطمة قد نزل بي هذا الأمر، وحملت أثقل حِمل، وسوف أسئل عن القاصي والداني من أمة محمد ﷺ، ولن تدع هذه المهمة فضلة من نفسي ولا من وقتي أقوم بها بحقك علي، ولم تبق لي أرباً في النساء، وأنا لا أريد فراقك، ولا أؤثر في الدنيا أحداً عليك ولكني لا أريد ظلمك، وأخشى ألا تصبري على ما اخترته لنفسي من ألوان العيش، فإن شئت سيرتك إلى دار أبيك.

قالت: وماذا أنت صانع ؟

قال: إن هذه الأموال التي تحت أيدينا وتحت أيدي إخوتك وأقربائك أُخذت كلها من أموال المسلمين، وعزمت على نزعها منهم وردها إلى المسلمين، وأنا بادئ بنفسي، ولن استبقي إلا قطعة أرض لي، اشتريتها من كسبي، وسأعيش منها وحدها، فإن كنتِ لا تصبرين على الضيق بعد السعة فالحقي بدار أبيك.

قالت: وما الذي حَملك على هذا ؟

قال: يا فاطمة إن لي نفساً تواقة، ما نالت شيئاً إلا اشتهت ما هو خير منه، اشتهيت الإمارة فلما نلتها اشتهيت الخلافة، فلما نلتها اشتهيت ما هو خير منها.. أني اشتهيت الجنة.

قالت: اصنع ما تراه فأنا معك، وما كنت لأُصاحبك في النعيم، وأدعك في الضيق، وأنا راضية بما ترضى به، ثم اختارت مقامها معه على كل الأحوال رحمها الله[11].

---

(١١) البداية والنهاية، ابن كثير، ج٩، ص٢٠٥.

وتغيرت حياتها وتبدلت أحوالها، فأصبحت تغسل ثوب زوجها، وتعد الطعام، وتعجن العجين بلا خدم ولا حشم ولا جوارٍ ولا وصيفات يخدمونها، ويُحكى أنه دخل على امرأته يوماً، فسألها أن تقرضه درهماً ليشتري له به عنباً فلم يجد عندها شيئاً[١٢] !

بنت الملوك وأخت الخلفاء وزوجة الخليفة ليس عندها درهم !

وجاءت أعرابية ذات يوم تريد لقاء الخليفة فدلها الناس على بيته البسيط.. فطرقته لتفتح لها الباب امرأة امتلأت يداها بالعجين.. فسألتها الأعرابية عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقالت لها انتظري قليلاً ريثما يأتي الخليفة.. وإذا بجانب حائط البيت رجل يصلح الدار، وقد علق طين البناء بيديه وثوبه.. فنظرت الأعرابية إليه مستغربة من جلسة هذه المرأة التي تعجن أمام هذا العامل الغريب الذي يصلح الدار من دون أن تستتر منه.. فبادرتها بالسؤال عن هذا العامل كيف تجلسين أمامه دون حجاب ؟! فأجابتها ضاحكة: إنه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز وأنا زوجته فاطمة بنت عبدالملك.

كان زهد العيش والتقشف قد امتد لكل جوانب حياتها فروي أن عمر ابن عبدالعزيز كان ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين[١٣].. درهم للغداء ودرهم للعشاء !

وقد ذُكر أن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة قال لامرأته فاطمة وكان عندها جواهر وحلي أعطي لها من أبوها وقيل: إنه لم يُرى مثلها قط،

---

(١٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج٩، ص٢٠٩.

(١٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (٣٨).

فقال لها عمر يا فاطمة اختاري إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهذه الجواهر في بيت واحد.

قالت: لا بل أختارك عليه وعلى أضعافه، فأمر به فحُمل حتى وضعه في بيت مال المسلمين، فلما مات عمر واستخلف أخوها يزيد بن عبدالملك قال يا فاطمة: سأرد لك جواهرك التي أخذت منك، فقالت لا والله لا أطيب به نفساً في حياته وأرجع فيه بعد موته.

ويُذكر أن غلام عمر دخل يوماً على مولاته فاطمة، فغدته معها عدساً، فقال لها منزعجاً: كل يوم عدس ؟!

قالت: يا بني هذا طعام مولاك أمير المؤمنين.

وأقرأ معي هذه الرواية العجيبة فعن مسلمة بن عبدالملك قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبدالملك: يا فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين !

قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله.

فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؟!

قالت: والله ما له قميص غيره !

وعن الفهري عن أبيه، قال: كان عمر بن عبدالعزيز يقسم الفيء فتناول ابن له صغير تفاحة، فانتزعها من فيه، فأوجعه فسعى إلى أمه مستعبراً يبكي فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا الفيء ؟

قالت: لا، وقصت عليه القصة.

فقال: والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما نزعتها من قلبي، ولكن كرهتُ أن أضيع نصيبي من الله ﷻ بتفاحة من فيء المسلمين[١٤].

فكيف بالله عليكم بنت الخلفاء والملوك تصبر على هذا الحال ؟!

وأهملت فاطمة التجمل والزينة حتى لامها النساء وواجهتها إحدى نساء الأمراء بذلك فقالت لها فاطمة: وهل تصنع الزوجة إلا ما يحب زوجها ؟ قالت الأميرة: نعم، قالت فاطمة: فإن عمر يحب مني هذا[١٥].

وبين الدكتور السيد الجميلي في كتابه: سيرة عمر بن عبدالعزيز أنه بين عشية وضحاها انتقلت فاطمة إلى عيشة المساكين والفقراء.. فتدور مع قدر الله حيث دار غير ضجرة ولا متبرمة بعد أن تخلت مع صحبة زوجها عمر بن عبدالعزيز عن حياة الملوك والقصور.. ويدخل عليها ؓ في يوم من أيام خلافته، فإذا بها تخيط ثوبه بيدها فتَذكر تلك الأيام التي كانت فيها فاطمة منعمة مكرمة تعيش في رغد من العيش في قصر السلطان تشير ببنانها فتلبي الجواري إشارتها وتتمنى وسرعان ما تتحقق أمنيتها. فأراد أن يداعبها ويخفف عنها، فدنا منها وقال: يا فاطمة لنحن في ليالي دابق[١٦] أنعم منا اليوم، فقالت فاطمة للخليفة الذي يرتدي أخشن الثياب: والله ما كنت على ذلك يومئذ أقدر منك اليوم، فقال: يا فاطمة إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، فسكتت قانعة راضية.

---

(١٤) صفة الصفوة (٢/١٢٠).

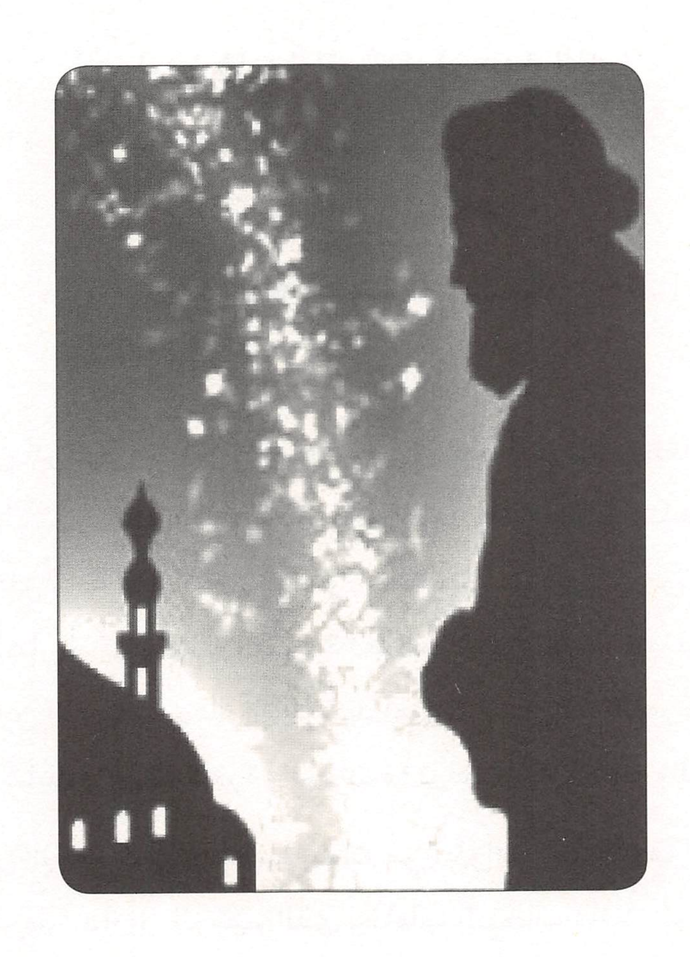
(١٥) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص١٠١.

(١٦) قرية في محافظة حلب في سوريا.

وتوفيت فاطمة بنت عبدالملك بن مروان (رحمها الله) في خلافة هشام ابن عبدالملك، وأوصت أن تدفن بجوار زوجها عمر بن عبدالعزيز في مدافن معرّة النعمان قرب حلب.

ولا يسعني إلا أن أقول قد أتعبتِ من بعدك الدنيا يا فاطمة.

* * * *



أحمد بن هارون الرشيد (رحمه الله) ..

القرن الثاني الهجري

القرن الثامن الميلادي

القناعة كنز العظماء

أحمد بن هارون الرشيد (رحمه الله)

القرن الثاني الهجري

القرن الثامن الميلادي

القناعة كنز العظماء

هارون الرشيد وما أدراك ما هارون الرشيد أحد أبرز خلفاء المسلمين والخليفة الأشهر للدولة العباسية، يحج عاماً ويغزو عاماً صاحب الحقبة الذهبية على كافة الأصعدة، إذا ذكر أسمه تهتز له العروش من هيبة الملك وتعود الأذهان لذكر رسالته الشهيرة لحاكم الإمبراطورية البيزنطية (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام)[1].

هارون الرشيد الذي بلغ اتساع دولته من أطراف الهند شرقاً إلى أطراف أفريقيا غرباً.. هارون الرشيد الذي يخاطب السحاب قائلاً: أمطري حيث شئت فوالله سوف يأتيني خراجك.

من منا لم يسمع عن هارون الرشيد الذي بهر بملكه الدنيا، وخطب وده ملوك الشرق والغرب.

وقد حصل لهارون الرشيد قصة لا تكاد تصدق وهي أقرب للخيال منها للحقيقة... بطلها ابنه الكبير الأمير أحمد.

---

(١) أطلس تاريخ الدولة العباسية. سامي المغلوث، ص٨٨.

بدأت هذه القصة العجيبة بأن هارون الرشيد قبل توليه الخلافة أحب امرأة فتزوجها فحملت منه بغلام، ولظروف غامضة ولسبب غير مفهوم أمرها الرشيد أن تذهب للبصرة، وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر وبعض المجوهرات النفيسة، ثم أمرها وقال: إذا سمعت من الناس أن الخلافة صارت لي فأتي إلي أنت وابني ثم ودعها ورحلت.

وبعد مدة من الزمن تولى هارون الرشيد إمرة المؤمنين وخلافة المسلمين، ولكن الزوجة وابنها على الميعاد لم يأتوا ! فتتبع الخليفة أثرهما فلم يجد لهما أي أثر فغلب عليه الظن أنهما ماتا، بينما الأمر لم يكن كذلك.

فالزوجة المختفية وضعت ابنها وأسمته أحمد وبذلت وسعها بالإهتمام والعناية فيه وربته تربية صالحة فنشأ الغلام عابداً قانعاً زاهداً في الدنيا، وشب على الاعتماد على النفس، فكان لا يأكل إلا من قوت يده، وكان لا يملك من الدنيا إلا مرواً وزنبيلاً يعمل بهما في الطين، وكان يعتزل الناس ويتعبد طيلة أيام الأسبوع، ولا يخرج للعمل إلا يوم السبت وذلك لكسب قوت بقية الأسبوع، ثم يعود ليتفرغ بعد ذلك للعبادة والاعتكاف، وعلى هذا الحال استمر طيلة سنوات عمره حتى توفت أمه بين يديه، وهو باق على حاله هذا، وبالطبع كان يخفى عن الناس اسمه ونسبه فكان لا يعرف حقيقته أحد.

هكذا وجد ولي عهد الخلافة العباسية سعادته وراحته ! فهو الابن الأكبر للرشيد وهو الخليفة المنتظر ولكنه زهد بالدنيا وزهد بكل ما فيها وكما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها ... وإن بناها بشر خاب بانيها

أين الملوك التي كانت مسلطنة   حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها   ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن في الآفاق قد بليت   أمست خرابا وأفنى الموت أهليها

واستمر أحمد على هذا الحال لسنوات طويلة حتى أصابه المرض ذات يوم وهو يعمل عند صاحب دار كان قد استعمله في بناء الطين، فقال له أحمد حينما أيقن أن الموت قد حان أجله: يا صاحب الدار أني محملك أمانة، أوصيك أن تذهب بهذا إلى الخليفة، وأخرج الخاتم الياقوت الأحمر من جيبه، ثم أريدك أن تبلغه مني السلام، وتقول له: إن صاحب هذا الخاتم يقول لك إياك أن تموت وأنت في سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين، وأن يكون آخر العهد بك، فإن ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى[٢].

ثم مات باني الطين أحمد وترك الدنيا لأهل الدنيا، فما كان من صاحب الدار إلا أن جهز جنازته، وصلى عليه ودفنه، واتجه على فوره إلى قصر الرشيد ليبرئ ذمته ببلاغ الوصية وتسليم الأمانة، فطلب صاحب الدار مقابلة الخليفة وانتظر حتى أذن له، فلما مثل أمام الرشيد قال له الخليفة: ما حاجتك ؟

قال صاحب الدار: هذا الخاتم أمانة دفعها إلي رجل لأعطيه لك، وأوصاني بكلام أقوله لك، فلما رأى الخليفة الخاتم عرفه على الفور، وقال: ويحك وأين صاحب الخاتم ؟ فقال: مات يا أمير المؤمنين ثم ذكر للخليفة

---

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٠، ص١٩٩.

الوصية كما قالها له أحمد، ثم ذكر أنه كان مُستأجر عنده يعمل في داره بالطين كل سبت بدرهم وأربعة دوانيق[٣] يتقوت بهذا المال للسبت الذي يليه، وكان باقي الأسبوع لا يعمل يتفرغ للعبادة.

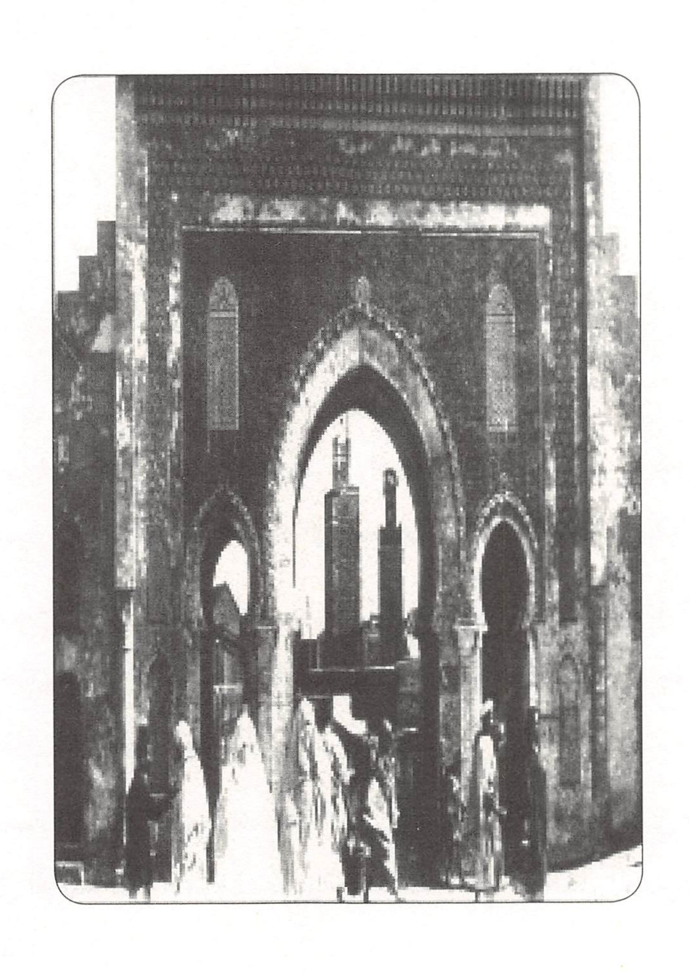
فلما سمع الرشيد ذلك قام وضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً على بطن وهو يقول: والله لقد نصحتني يا بني، والله لقد نصحتني يا بني ثم بكى ثم رفع الخليفة رأسه لصاحب الدار وقال: هل تعرف قبره ؟

قال: نعم أنا الذي دفنته، فانطلق الخليفة مع صاحب الدار لمكان القبر ووصلوه ليلاً حتى أوقف الخليفة عليه، وظل الرشيد عند القبر يبكي حتى أشرقت الشمس، ثم أمر الرشيد لصاحب الدار عشرة آلاف درهم وكتب له ولعياله رزقاً.

وقد عُرف الأمير أحمد في المصادر التاريخية بأحمد السبتي لما عرف عن عمله في يوم السبت فقط، فرحمة الله عليه رحمة واسعة ورزقنا الله وإياكم قدراً من قناعته.

* * * *

(٣) الدانق سدس الدرهم.



محمد بن عبدالله الفهري (رحمه الله) ..

القرن الثالث الهجري

القرن التاسع الميلادي

تربية الأبناء .. التجارة الرابحة

محمد بن عبدالله الفهري (رحمه الله)

القرن الثالث الهجري

القرن التاسع الميلادي

تربية الأبناء .. التجارة الرابحة

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما من رجل تدرك له ابنتان فيحسن إليهما ما صَحِبتاه أو صَحِبهما إلا أدخلتاهُ الجنة»[١].

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويكفيهن ويرحمهن، فقد وجبت له الجنة البتة، فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله قال: وثنتين»[٢].

لنرَ قصة الفقيه الشيخ محمد الفهري مع بناته وهو قرشي النسب من نسل البطل الإسلامي المعروف عقبة بن نافع، كان محمد الفهري غنياً وذا ثروة طائلة.

ولا نكاد نجد لهذا الرجل العظيم أثراً في المراجع والكتب التاريخية، فكان من الصعوبة بمكان معرفة أحواله وسيرته من خلال ما نقل عنه، لأنه بحدود ما اطلعت عليه لم ينقل عنه إلا القدر اليسير، لكن من المؤكد أننا سنعرف عظمة هذا الرجل من خلال ما صنعن بناته من بعده.

(١) رواه ابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.

كان محمد الفهري في بداية حياته يعيش في مدينة القيروان[٣]، ولم يكن له من الذرية إلا فاطمة ومريم، وبعد فترة من الزمن رحل ببناته وهن صغار مع العرب النازحين لأقصى الغرب الأفريقي حتى استقر بهم الحال في المغرب العربي، وقد كان محمد بن عبدالله الفهري أحرص ما يكون على تربية بناته على الخلق والدين والحكمة والعقل وجعلهن أهم أولوياته في الحياة، ولم تشغله تجارته وأمواله الكثيرة عن هذا الدور المقدس.

فتجارة الدنيا مهما عظمت فمصيرها التفرق والشتات ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[٤]، وكما قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «إذا مات الإنسان أنقطع عنه العمل إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[٥].

فمن هذا الباب زرع محمد الفهري في بناته منذ نعومة أظافيرهن الدين والعقل والحكمة، واعتنى بهن غاية الإعتناء إلى أن كبرن بين يديه على هذا الحال حتى أخذ الله أمانته، وتوفى الفقيه محمد الفهري فورثت فاطمة وأختها مريم كل هذه الثروة العريضة والمال الوفير، وجاء وقت حصد الغرس الذي زرعه فيهن هذا الأب العظيم، وأردن بناته أن يهدينه في قبره ثواب حسن صنعه بهن، فلنبدأ بمريم فلنرَ ماذا فعلت ؟

تحسست مريم أحوال الناس في مدينة فاس خاصةً بعد إزدهار المدينة وكثرة المهاجرين إليها، وحيث إن المساجد في ذلك الزمان كانت بمثابة مراكز

(٣) القيروان تقع في الشمال التونسي أسسها عقبة بن نافع، وهي حاضنة للعلم والعلماء في ذلك الوقت.

(٤) سورة النحل، (آية: ٩٦).

(٥) صحيح مسلم - كتاب الوصية.

ومعاهد للتعليم فضلاً عن كونها دوراً للعبادة فاهتدت إلى أن المدينة بحاجة لمسجد لاستيعاب أعداد المصلين المتزايدة، واستعانت بالله وبدأت في البناء، وكانت الطريقة التي سلكتها مريم في بناء مسجدها هي أنها التزمت بأن لا تأخذ أي مواد بناء إلا من الأرض نفسها التي اشترتها لهذا الغرض وذلك لشدة حرصها على الحلال، وتجنبها للحرام فقررت أن لا تكون في المسجد أي طوبة إلا من حر مالها ومن تراب أرضها، وأعطت الصناع والعمال الأوامر بذلك، فحفرت كهوفاً في أعماق أرضها وجعلت تستخرج منها الرمل الأصفر والحجر والجص وتبني به، فبدا ذلك واضحاً من شكل المسجد حتى أصبح في أتم رونق وأجمل حال وسمي بمسجد الأندلس(٦).

فيما كانت مريم منهمكة في بناء مسجدها كانت أختها فاطمة بالجهة الأخرى من المدينة نفسها قد سخرت ثروتها وأموالها لإعادة بناء جامع القرويين، فضاعفت حجمه بشرائها للحقل المحيط به، وضمت أرضه للجامع، وبذلت في ذلك مالاً جسيماً حتى اكتمل بناؤه بأبهى صورة، وتذكر الكتب والمراجع التاريخية أن فاطمة منذ أن بدأت في بناء الجامع نذرت أن تواصل الصوم وأن لا تفطر أبداً حتى ينتهي البناء، وبالفعل ظلت صائمة محتسبة حتى تم بناء الجامع على أجمل حال ثم أفطرت وصلت فيه شكراً لله، وكان ذلك في بداية رمضان من عام ٢٤٥هـ.

قال عنها ابن خلدون: فكأنما نبهت عزائم الملوك بعدها، وهذا فضل يؤتيه الله لمن يشاء من عباده الصالحين، فسبحانه وتعالي إذا أراد لأمة الرقي والرفعة وأذن لها بالسعادة الغامرة أيقظ من بين أفرادها رجالاً

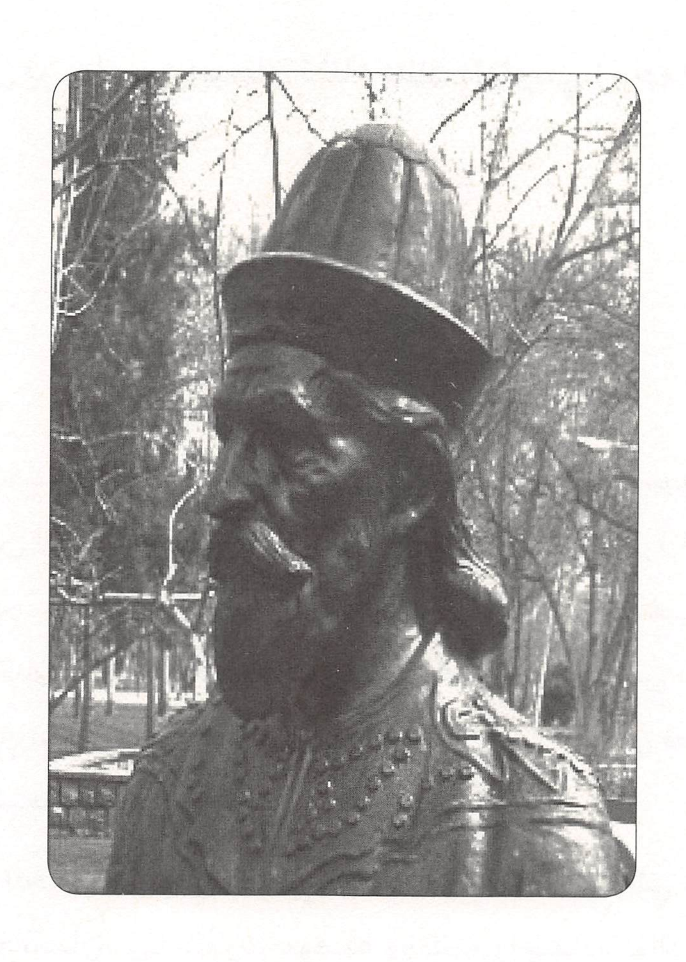
(٦) مسجد الأندلس في مدينة فاس شيد عام ٢٤٦هـ.

ونساءاً، شباباً وشيوخاً، أيقظ فيهم وجداناً شريفاً وشعوراً عالياً يدفعهم للقيام بصالح الأعمال.

وبعد اكتمال بنيان جامع القرويين دب فيه العلم والتعليم، وتم فيه إنشاء أول معهد ديني وأكبر كلية عربية إسلامية في بلاد المغرب الأقصى.. ويعد بعض المؤرخين هذا الجامع أول جامعة عربية وتعد جامعة القرويين التي تأسست عام ٢٤٥هـ في فاس أقدم جامعة في العالم وفق سجل غينيس للأرقام القياسية، وما زال مسجد الأندلس وجامع القرويين وجامعته التعليمية إلى يومنا هذا صرحاً شامخاً يعكس صفحة مشرقة من تاريخ أمتنا الإسلامية العظيمة.

فرحم الله الفقيه محمد بن عبدالله الفهري وجزاه الله خيراً على ما أحسن في تربيته لبناته مريم وفاطمة رحمهم الله جميعاً.

* * * *



الحسن بن علي بن إسحاق نظام الملك الطوسي (رحمه الله) ..

٤٠٨ - ٤٨٥هـ

١٠١٨ - ١٠٩٢م

رجل سبق زمانه

الحسن بن علي بن إسحاق نظام الملك الطوسي (رحمه الله)

٤٠٨ - ٤٨٥هـ

١٠١٨ - ١٠٩٢م

رجل سبق زمانه

ولد الحسن بن علي في مدينة طوس[١] وتوفت أمه وهو رضيع، وعني به أبوه، فأتقن العربية وحفظ القرآن، يقول عنه ابن كثير: (قرأ القرآن وله إحدى عشر سنة واشتغل بالعلم والقراءات والتفقه على المذهب الشافعي وسماع الحديث واللغة والنحو، وكان عالي الهمة، فحصل من ذلك طرفاً صالحاً، ثم ترقى في المراتب حتى وزر للسلطان ألب أرسلان ثم من بعده لملك شاه تسعاً وعشرين عاماً)[٢].

تدرج الحسن بن علي في المناصب وعمل كاتباً عند والي مدينة بلخ بشمال أفغانستان، ولما ظهرت موهبته وفطنته واجتهاده لوالد السلطان المشهور ألب ارسلان، أمر ألب ارسلان ابنه، فقال له: يا بني اتخذ الحسن ابن علي والداً لك، ولا تخالفه فيما يشير به.

اعتمد الوزير الجديد في سياسته على تقريب الرجال الأكفاء، وكان يغير الولاة والعمال مرة كل سنتين أو ثلاثاً ضماناً لعدم تلاعبهم، كما رتب

(١) مدينة تاريخية في إيران، وتسمى اليوم بمشهد الرضا.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٢، ص١٥١.

في كل مدينة رجلاً نزيهاً لمراقبة الوالي والقاضي والمحتسب ومن يجري مجراهم من الموظفين وموافاتهم بأخبارهم أولاً بأول، كذلك كان يدقق في اختيار الموظفين، فيختار من كان منهم أغزرُ علماً وأزهد نفساً وأعف يداً وأقل طمعاً، ونجح بهذه الإجراءات الإدارية السابقة لزمانه في تكوين قاعدة صلبة من الكفاءات التي تدعم الدولة وتساند السلطان، واستطاع أن يثبت في كل المواقف السلمية والحربية براعة وحسن تصرف وحنكة سياسية، وقد صاحب السلطان في كل حروبه وفتوحاته وعلا قدره عند السلطان خاصة بعد المعركة الشهيرة ملاذكرد التي خاضها السلطان ضد الروم، وانتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً.

فكان لهذا القرب بين السلطان ووزيره ثمن، فكثرت عليه الوشاية، وحاول الحساد تشويه صورته عند السلطان، ولكن السلطان ألب أرسلان كان يثق في وزيره ثقة كبيرة جداً، فقال له ذات يوم: كثر ما يصلني عنك من شكوى، فإن كان صحيحاً فَهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا عليك فأغفر لهم زلتهم، وهذا أقصى ما استطاع الوشاة الوصول إليه من السلطان تجاه وزيره المخلص، واستمر هذا الحال لحين وفاة السلطان ألب أرسلان فأوصى ابنه ملك شاه بأن يتخذ الحسن بن علي نظام الملك وزيراً له من بعده.

وقد نفذ الابن الشاب الذي كان في العشرين من عمره وصية والده، وجعل الحسن بن علي ذراعه الأيمن ومنحه صلاحيات واسعة مما جعل له الكلمة المسموعة في الدولة كلها، وقد أظهر كفاءة عالية في إدارة البلاد، وازدهرت الدولة وبلغت ذروة المجد وأصبحت أكبر قوة في العالم حينها.

وتمتع هذا الرجل الفذ بصفات كثيرة جداً مما جعله محل اتفاق بين المؤرخين بأنه من أهم الشخصيات الإسلامية عبر التاريخ رغم جهل كثير من الناس به، فكان حَسن الخُلق كثير الرحمة ونصير المحتاجين والفقراء، ومن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه فدفعها بعض حجابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه فإن الأمراء والأعيان لا حاجة بهم إليك، ثم صرفه عن حجابته[٣]، وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ لم يسبقهُ من كان قبله ولا أدركهُ من كان بعده[٤]، فقد كان من أخلاقه أنه ما جلس قط إلا على وضوء، ولا توضأ إلا وتنفل، ويقرأ القرآن ولا يتلوه مُستنداً إعظاماً له ويستصحب المصحف معه أينما توجه، ويصوم يوم الاثنين والخميس[٥]، وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه، ويقربهم إليه ويدنيهم، وأخباره مشهورة كثيرة، قد جمعت لها المجاميع السائرة في البلاد[٦].

وتم في عهده بناء كثير من المساجد في مختلف البلاد كما أهتم بعمارة الحرمين الشريفين، وكذلك كان له دور كبير في الثقافة والعلم والأدب والنهضة الحضارية، كما كان له دور في السياسة وميادين القتال، فقد شجع ودعم أبرز الشخصيات الأدبية والعلمية في زمانه أمثال الشاعر والفلكي عمر الخيام، وأنشأ المجامع العلمية في بغداد، وكان أشهرها المدرسة النظامية،

---

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ٨/ ٢٣٦- ٢٣٧.

(٤) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٩٨/١.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ٤/ ٣١٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٣٥٨- ٣٥٩.

وتخرج منها رواد الإصلاح الديني لجيل صلاح الدين الأيوبي فاتح المقدس، كما أنشأ المدرسة الكبرى في نيسابور وأنشأ مثلها في طوس.

وبعد انتشار التشيع وبعض العقائد المنحرفة في خراسان والعراق حمل الوزير على كاهله حرب المذاهب الباطلة، وعقد العزم على نشر المذهب السني، فصرف مبالغ هائلة على المدارس وحرص على توفير الراحة للطلبة وخصص لهم سكناً خاصاً مع توفير الأكل مجاناً، وبنى في كل مدرسة مكتبة ضخمة، وداوم الوزير على زيارة هذه المدارس وتحسس حاجات الطلبة، وأنشأ نظاماً تعليمياً فريداً من نوعه حيث جعل لكل فصل معلماً ونائب معلم يساعده وينوب عنه في حال غيابه، وأنشأ نظام المعيد بحيث يعيد أحد الطلبة الدروس لزملائه لزيادة الرسوخ في العلم، واعتمد للطلبة نظام الإجازة وهو ما يعرف اليوم بالشهادة للمتخرجين وفيها أثبات اجتياز المراحل الدراسية، وذلك لتولى القضاء والإفتاء والتدريس وسائر المناصب الحكومية.

وفي يوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥هـ خرج الحسن بن علي نظام الملك مع السلطان ملك شاه من أصفهان قاصداً بغداد ماراً بنهر نهاوند، وحان موعد الإفطار، فصلى المغرب وأفطر، وحوله خلقٌ كثير من الفقهاء والقراء وأصحاب الحوائج، فتكلم فيهم وكان مما قاله تذكير الناس بفضل هذا المكان الذي كانوا فيه، وهي معركة نهاوند بين الفرس والمسلمين في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وكيف أن هذا المكان شهد استشهاد عدد كبير من الصحابة - رضوان الله عليهم - ثم ختم كلامه وقال: طوبى لمن كان معهم.

وما هي إلا دقائق بعد كلامه إلا ويقترب منه أحد المحتاجين الذي تلبس بلباس الفقراء، ومعه خنجر كان يخبئه بين ملابسه، ويباغت الوزير

بعدة طعنات قاتلة، وبسرعة كبيرة تم القبض على هذا المجرم القاتل، وتبين أنه من أهل الفرق الباطلة الذين امتلأ قلبهم غيظاً وحقداً على الحسن بن علي بسبب نشره للسنة وشدة حربه على المذاهب المنحرفة، وفي اللحظات الأخيرة في حياته التفت إلى القوم وقال لهم: لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات، ولما بلغ أهل بغداد استشهاده حزنوا عليه كثيرا وقيل في رثائه :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة	يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها	فردها غيرة منه إلى الصدف

والأعجب في سيرة هذا الرجل العظيم أنه رغم كل ما ذكرنا من إنجازاته وانشغاله بأمور الدولة طوال هذه السنين إلا أنه ترك بعده إرثاً علمياً بعدد من المؤلفات والكتب التي كتبها بنفسه في الإدارة والسياسة والحُكم وعلم الاجتماع.

* * * *



مظفر الدين كوكبوري (رحمه الله) ..

٥٤٩ - ٦٣٠هـ

١١٥٣ - ١٢٣٢م

الذئب الأزرق

مظفر الدين كوكبوري (رحمه اللّٰه)

٥٤٩ - ٦٣٠هـ

١١٥٣ - ١٢٣٢م

الذئب الأزرق

كلمة كوكبوري باللغة التركية القديمة تعني الذئب الأزرق، فمن يكون هذا الذئب الأزرق؟

مظفر الدين هو ابن حاكم أربيل في زمانه، توفى والده وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، فمنعه صغر سنة من خلافة والده بشكل فعلي، حيث تولى مقاليد السلطة ولكنه بقي في منصبه بشكل صوري فقط، وكان الذي يدير الأمور فعلياً هو نائب الإمارة مجاهد الدين قايماز، ومرت الأيام حتى كبر مظفر الدين واشتد عوده، ولكن لوجود خلافات بينه وبين النائب مجاهد الدين قايماز ما لبث أن تم خلعه من منصبه، ونُصبَ أخاه زين الدين يوسف بدلاً منه.

خرج مظفر الدين من مدينته، وتوجه للجوء لحاكم الموصل الذي استضافه عنده، وأسكنه في مدينة حران[1]، فولاه عليها، ومع مرور الأيام دخل مظفر الدين تحت راية صلاح الدين الأيوبي، وانفتح له باب الجهاد

(١) مدينة حران تقع في أقصى جنوب تركيا بمحاذاة الحدود السورية، وهي مدينة شيخ الإسلام ابن تيمية.

ضد الصليبين، وقد أُعجب صلاح الدين الأيوبي بشجاعته وقوته، فقربه منه حتى أنه زوجه بأخته[٢]، فأصبح بذلك مظفر الدين صهراً لصلاح الدين الأيوبي، وقويت العلاقة بينهم ورافق صلاح الدين في معظم معاركه، وكان له دور رئيسي في معركة حطين حيث تولى فيها قيادة جزء من الجيش وأبلى فيها بلاءً حسناً، وفي أثناء هذه المعركة لاحظ مظفر الدين أحوال الطقس واتجاه الرياح بقوة نحو الصليبين فخرج بفكرة عبقرية وهي إحراق الحشائش التي سينتج منها اتجاه الدخان الكثيف نحو الصليبين وبالتالي يشل حركتهم، وبالفعل هذا ما حصل وساعد ذلك بإنتصار المسلمين.

وبعد عدة معارك وإنجازات عسكرية تحققت بفضل قوته وإقدامه برزت في حياته جوانب آخرى مشرقة تدل على أن هذا الرجل عملة نادرة فعلاً، وذلك تحديداً بعد موت أخيه زين الدين يوسف وعودته لحكم أربيل، فضرب مظفر الدين أروع مثال بحسن سيرته، وأثبت أنه رجل دولة من الطراز الأول، فأقام المدارس والمستشفيات، ونشر العلم، وشجع العلماء، ونهض بالإقتصاد والتجارة والزراعة، وكان يشارك أهل المدينة مناسباتهم وأفراحهم، وعاش بينهم بحياة زهد فيها كثير من البساطة والتقشف.

وهو من أوائل الذين أقاموا دور رعاية لذوي الاحتياجات الخاصة، وخصص لهم مساكن، وأقام فيهم من يرعاهم وكان يزورهم بنفسه في كل أسبوع مرتين، ويتفقد أحوالهم فرداً فرداً، ويباسطهم ويمازحهم وأقام

(٢) اسمها ربيعة خاتون.

دوراً أخرى للأيتام واللقطاء، وجعل عليها مشرفات ومرضعات، وأقام داراً لمرضى الجذام[٣] وزوده بكافة الوسائل الممكنة لراحتهم، وجعل لكل مريض خادم خاص به.

ثم التفت لفقراء المسلمين في مكة والمدينة، وكان يرسل لهم سنوياً ثلاثين ألف دينار توزع عليهم، وبنى في مكة والمدينة خزانات لتوفير مياه الأمطار طوال العام، ثم كرس جهوده لفداء أسرى المسلمين الذين بيد الصليبين، فكان يرسل المفاوضين ويساوم الأعداء حتى استطاع تخليص ستين ألف أسير من بين أيديهم.

ويقول عن سيرته الشيخ علي الطنطاوي (رحمه الله): (لقد قرأت سيرته، وسمعت خبره مِن شاهد عيان صادق هو القاضي ابن خلكان، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك أم رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والإحسان؟ هذا هو عمله الذي يعيش له، ويعيش منه، ولا هم له غيره، ولا عمل له سواه، ولقد عَرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الأمثلة، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين، ويبذرون ويضعون الأموال في غير مواضعها، أما الملك المظفر فكان كرمه للناس جميعاً ولولا ما سن من سنن سيئة في يوم المولد[٤] من اللهو والسماع لشهدت بأنه لم يكن له نظير)[٥].

---

(٣) مرض بكتيري مُعد عرف على مر التاريخ.

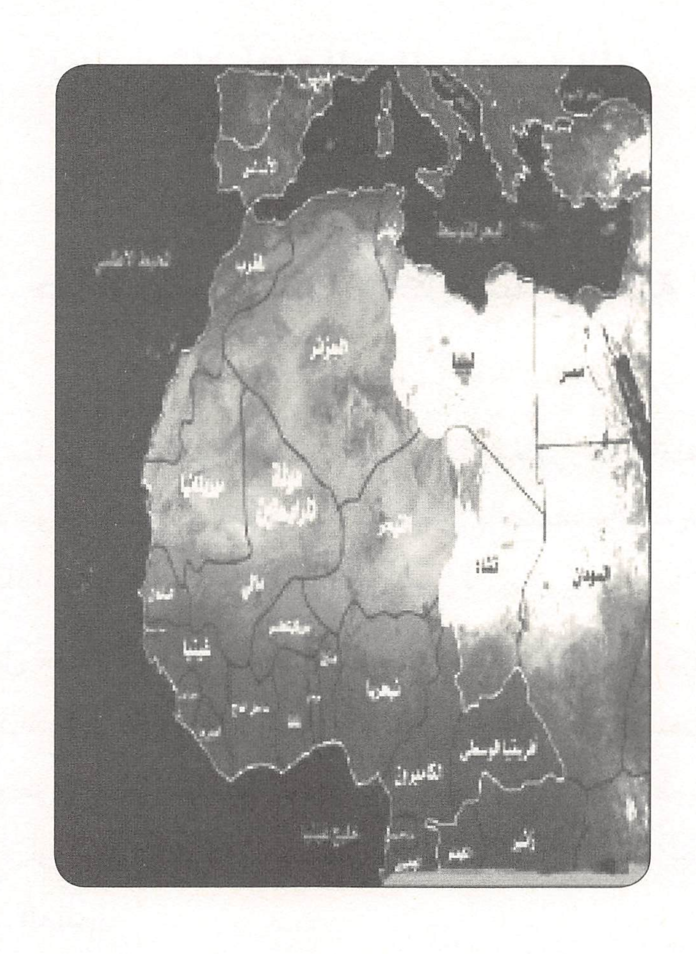
(٤) تذكر كتب التاريخ أن الملك المظفر أول من سن الاحتفال بالمولد النبوي.

(٥) رجال من التاريخ. علي الطنطاوي، ص ٢٠٧.

واستمر حكمه لمدينة أربيل خمسين سنة حتى توفاه الله، وهو قد ناهز الثمانين من عمره، وكان قد أوصى أن يدفن في مكة المكرمة إلا أنهم ما استطاعوا إيصال جثمانه لمكة لبعد المسافات فدفن في الكوفة.

* * * *

▪ المصدر - أحمد تمام: مظفر الدين كوكبوري.. أمير شجاع وحاكم إنسان، الذهبي سير أعلام النبلاء، ابن خلكان وفيات الأعيان.



يحيى بن إبراهيم الجدالي (رحمه الله) ..

القرن الخامس الهجري

القرن الحادي عشر الميلادي

حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة

يحيى بن إبراهيم الجدالي (رحمه الله)

القرن الخامس الهجري

القرن الحادي عشر الميلادي

حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة

كثير منا يراوده شعور حقيقي في الرغبة لتغيير حال أمته وتبديلها لأحسن الأحوال، ولكن سريعاً ما ينتابنا شعور بالضعف واليأس، ونقول في أنفسنا: ماذا عسى فرداً ضعيفاً مثلي أن يفعل!

ننتقل معكم لأقصى الغرب الأفريقي وبشكل سريع نستعرض هناك سير الأحداث قبل ظهور هذا البطل العظيم المجهول، ففي منتصف القرن الرابع الهجري سيطر ظلام الجهل على الغرب الأفريقي فرغم كونهم مسلمين إلا أن الخرافات كانت شائعة، والإنحلال كان منتشراً جداً في هذا الجزء من العالم.

وكانت قبيلة جدالة الموريتانية غارقة بوسط ذلك كله، وكان أمير قبيلة جدالة رجل فاضل أسمه يحى بن إبراهيم الجدالي وهو سيداً ذو قدر في قومه وصاحب جود وكرم وذو رجاحة عقل ونفاذ بصيرة وكان يؤرقه ما يرى من أحوال قبيلته، وكان عاقداً العزم والنية على تبديل أوضاعهم وانتشالهم من الضلال إلى الهدى.

إلا أنه لم يكن يملك العلم ولا الإمكانيات لفعل ذلك.. فهل عجز أو استسلم؟!

سنرى من خلال استعراض سيرة هذا الرجل العظيم كيف أن فرداً واحداً يستطيع أن يزرع بذرة الإصلاح والتغيير في أمة كاملة إذا صدقت النية وألهمه الله التوفيق والسداد.

بدأت خطته بأن قرر السفر لفريضة الحج على أن يبحث في هذه الرحلة الطويلة بين المدن الإسلامية وحواضرها عن رجل ذي علم ليصطحبه معه، ليرجع به إلى قومه ليكون بذلك نواة للدعوة إلى الله بينهم.

فعزم أمره وسافر للحج وبعد انتهائه من الفريضة وفي طريق عودته ذهب إلى مدينة القيروان[1]، وبدأ بالتردد على مجالس أهل العلم وحضور حلقات الذكر إلى أن التقى بإمام المغرب الفقيه أبي عمران الفاسي، فأفصح له الأمير يحيى عن غايته وأنه يبحث عن من يذهب معه لدعوة قومه، فقال له الفقيه: حدثني عن بلادك وعن قومك وعن حال الإسلام عندكم وعلى أي مذهب هي قبيلتك ؟

فقال له الأمير يحيى: ليس لنا من العلوم شيء وليس لنا مذهب، لأننا في صحراء منقطعين، ولا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال الذين لا يحسنون إلا الانشغال في البيع والشراء.

فأُعجب به الفقيه أبو عمران لما لمس من حبه للخير وحرصه الشديد على أن يساعد قومه بإعادتهم للإسلام الصحيح والطريق الحق.

فقال له الفقيه: سأجتهد إن شاء الله في البحث لك عن الرجل المناسب لهذه المهمة، ثم عرض الفقيه أبو عمران الموضوع على طلبته إلى أنه لم

(١) مدينة القيروان تقع في الشمال التونسي، أسسها عقبة بن نافع، وهي حاضنة للعلم والعلماء في ذلك الوقت.

يوافق أي منهم على الذهاب، وذلك لمشقة السفر وطول المسافة في وسط الصحراء.

وفشل الأمير يحيى في الغاية التي زار القيروان من أجلها فهل تراه يئس أو استسلم؟

أو تراه قال: أنا فعلت كل ما بيدي؟

طلب الأمير يحيى من الفقيه أبو عمران أن يجد له حلاً آخر، فهو عاقد العزم بكل إصرار لتنفيذ ما خطط له مهما كلفه الأمر، فلم يجد له أبو عمران حلاً سوى أن يرسله إلى الفقيه وجاج اللمطي في بلاد السوس في أقصى جنوب المغرب، وأرسل معه مكتوباً طالباً فيه أن يساعدون الأمير يحيى في تحقيق مبتغاه.

وأخذ الأمير يحيى الكتاب وشد رحاله لبلاد السوس حتى وصل للفقيه وجاج وسلمه الرسالة وألح عليه بطلبه، وبعد أخذ ورد اختار له الفقيه أحد تلامذته واسمه عبدالله بن ياسين ورجع الأمير يحيى إلى قومه بعد رحلة طويلة ناجحاً في مسعاه وبصحبته الداعية الذي خطط هو من قبل لقدومه.

وبدأت الدعوة المباركة ولاقوا من الرفض والصعاب ما لاقوا، ومع مرور الأيام وبالصبر والتصبر بدأ يتكاثر عليهم الناس شيئاً فشيئاً، وكان هذا الشيخ وحده بعد توفيق الله سبباً في هداية كل هذه الخلائق ونقلها من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، ومن الصحارى الإفريقية الجنوبية إلى ملك المغرب كله والأندلس[٢]، ومن هذا المكان تم تأسيس نواة دولة إسلامية قوية،

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٣١٥.

وهي ما تعرف باسم دولة المرابطين، فكان أحد ثمراتها الإمام الداعية أبو بكر اللمتوني الذي ذهب ببضع آلاف من أعوانه ناشراً الدعوة الإسلامية في غابات وسهول وأدغال أفريقيا، فانتشر الإسلام في السنغال والكامرون ونيجيريا وغانا وبنين وسيراليون وليبيريا والجابون وغامبيا والنيجر والكونغو وساحل العاج وتوجو وبوركينا فاسو وغينيا ومالي وتشاد، حتى عاد بعد سنين ومعه خمسمائة ألف مقاتل[٣] دخلوا في دين الله، وتأسست دولة سنية تحكم بشرع الله وانتشر العلم ورفع الجهل، وفي الشمال الأفريقي كان رافع الراية لهذه الدولة الفتية البطل الأسطورة الشهير يوسف بن تاشفين الذي حكم الأندلس وضمها لدولته.

وامتد حكم الدولة الإسلامية من وسط إسبانيا إلى جنوب أفريقيا كل هذا حصل بسنوات قليلة وبزمن قياسي ولو عدنا لأساس هذه الدولة المباركة ستجد بذرتها الأولى كانت صدق وإخلاص يحيى بن إبراهيم الجدالي وتخطيطه الملهم ورأيه السديد، وكتب الله بذلك أجر كل ما تحقق في صحيفة هذا الرجل العظيم، وهكذا يثبت التاريخ مرة بعد مرة أن بإمكان رجل واحد إذا أحسن النية وألهم الحكمة أن ينهض بأمة كاملة.

* * * *

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٢، ص١٤٥.



أبو البركات يوسف البربري (رحمه الله) ..

القرن السادس الهجري

القرن الثالث عشر الميلادي

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله

أبو البركات يوسف البربري (رحمه الله)

القرن السادس الهجري

القرن الثالث عشر الميلادي

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله

قصص التاريخ الإسلامي لا تخلو من بطولات وفتوحات يملؤها كثيراً من التضحيات العظيمة، ويحمل الوجه الآخر من تاريخنا المشرف فتوحات لا تقل جمالاً، وأبطالها رجال أسلمت على أيديهم دول وشعوب دونما حروب ولا سفك دماء.

قصة هذا الرجل العظيم تذكرنا بقصة الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه مع أهل اليمن، بدأت القصة حين أبحرت سفينة من أقصى جنوب المغرب، وتحديداً من ميناء أغادير عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وانتهى بها المطاف بالمصادفة في عرض المحيط الهادي وتحديداً في جزر المالديف[1]، وكان على متن هذه السفينة رحالة أمازيغي مسلم أتى من أقصى المغرب العربي، رجل في منتصف العمر غير ملتح غريب الملامح على تلك الديار، اسمه أبو البركات يوسف البربري، فنزل ضيفاً في بيت امرأة عجوز مسنة لتبدأ من هنا أحداث قصة هي أقرب للخيال من الحقيقة، كان الزمن على موعد مع

(١) تقع في المحيط الهندي، تتكون جزر المالديف من ١٢٤٠ جزيرة مرجانية، منها ٢٠١ جزيرة مأهولة بالسكان، نسبة الإسلام فيها ١٠٠٪.

هذا الرجل العظيم لتحول دولة كاملة وشعب كامل من البوذية إلى الإسلام في زمن قياسي، يقول ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار: (ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظاً للقرآن، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل، فدخل عليها يوماً وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم، فأستفهمهنِّ عن شأنهن فلم يفهمنه فأتى ترجمان، فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها، وليس لها إلا بنت واحدة ليقتلها العفريت).

وأصل هذه الاعتقادات يرجع لعادات وتقاليد بوذية استنزفت دماء الأبرياء هناك، كانت المالديف تعج بالأصنام ويسيطر عليها الجهل والظلام، وكان من ضمن ما هو متعارف عليه عندهم في اعتقاداتهم أنه في كل شهر يجب أن يقدموا لشياطين البحر قرباناً بأحد بناتهن الصغار، فعلى رأس كل شهر يجرون القرعة بينهم ليضعوا الضحية بالليل في كوخ صغير ملاصق للبحر مليئ بالأصنام والأوثان، وما إن تشرق شمس اليوم التالي ويفتحون الكوخ إلا ويجدون البنت قد قُتلت، ومزق جسدها لأشلاء ويزعمون أن هذا من فعل شيطان البحر.

فقال أبو البركات للعجوز حينما سمع هذا الكلام: أنا أذهب عوضاً عن بنتك حيث رق قلبه لآلاف الأرواح البريئة التي تزهق في هذه البلاد ظلماً وبهتاناً، ففرحت العجوز بذلك، وقام أبو البركات وتوضأ، وحملوه إلى ذلك الكوخ الموحش، ودخله وجلس يقرأ فيه القرآن، وفي صبيحة اليوم التالي جرياً على عادتهم حضر للكوخ جموع من الناس وأعيان القرية ليأخذوا الجثة ويحرقوها كما تملي عليهم تقاليدهم إلا أنهم فوجئوا بضيفهم المغربي جالساً لم يمسسه سوء يقرأ ويرتل القرآن وهم لا يعرفون بالضبط ماذا يقول، فتعجبوا من هول هذه المفاجئة، ونقل المؤرخون (فجاءت العجوز

وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها، فوجدوا المغربي يتلو، فمضوا به إلى ملكهم، وكان يسمى شنورازة وأعلموه بخبره فعجب).

فمثَل المغربي أمام ملكهم وعرض عليه الإسلام وبدأ يحببه بالتوحيد ويزينه في عينه، فقال له الملك: أقم عندنا ضيفاً فإن كررت فعلتك الشهر المقبل ونجوت أسلمنا معك وقبلنا دعوتك، فأقام عندهم ذلك الشهر ورأوا منه طيب الخلق والمعشر مما حببهم بهذا الدين، حتى إذا تم الشهر عليهم ذهب المغربي للكوخ، وتكرر ما كان منه في الشهر الماضي، فأسلم الملك وأسلم أهله وأولاده، وكسروا أصنامهم وجرت سنة الله في أرضه، وكما يقال.. الناس على دين ملوكهم، فأسلم بعد ذلك أهل الجزيرة كلها ثم بعثوا إلى سائر الجزر المحيطة فأسلم أهلها جميعاً.

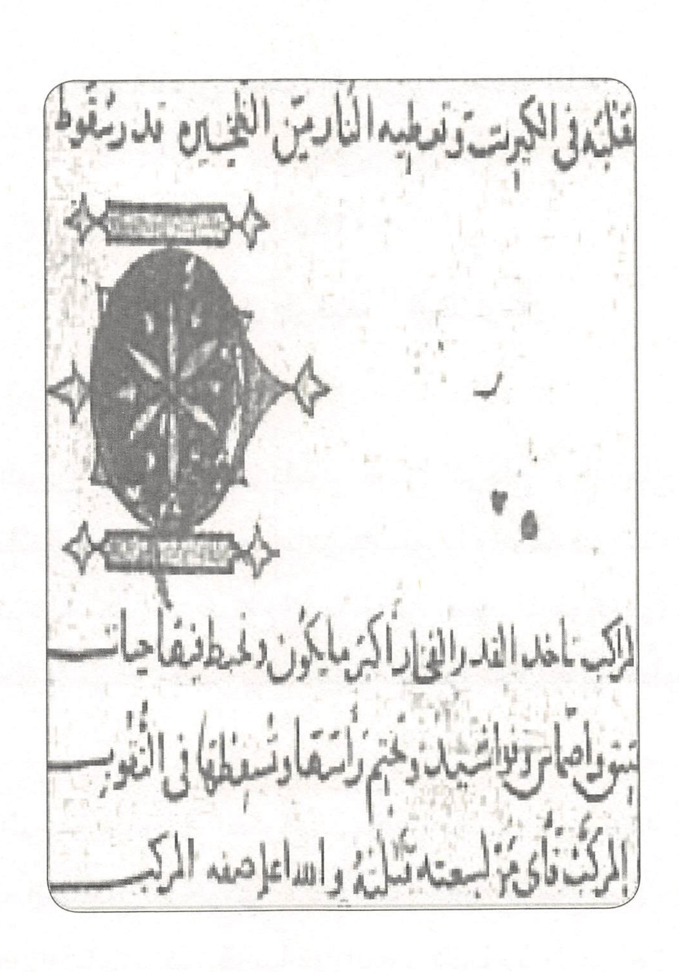
فأقام أبو البركات بينهم وبنوا أول مسجد في الجزيرة وسموه مسجد أبي البركات يوسف البربري ونقش على لوحة تذكاراً كتب فيها، أسلم أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي وما زالت اللوحة محفوظة إلى اليوم، ويعتبر هذا النقش أقدم خط عربي في المالديف إن لم يكن أقدم خط عربي في المحيط الهندي كله.

وقام الملك بتغيير اسمه إلى محمد بن عبدالله تشبهاً باسم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما قام الملك بتخصيص ثلث ثروة الجزر لعابري السبيل رداً لجميل المسافرين، حيث إن الإسلام أتاهم عبر هذا المسافر المغربي، ثم بدأ أبو البركات يعلم الناس أحكام الدين والعقيدة والتوحيد، وأشرف بنفسه على بناء عشرات المساجد في مختلف الجزر،

وحطم الناس الأصنام فلم يبق في كل الجزر أي صنم وكل هذه الأحداث العظيمة حصلت في شهرين فقط!

وأجلّه الملك وعظّمه الشعبُ كتعظيم الملوك، وعاش بينهم سنين حتى مات بأرضهم، وكان حاله بينهم كأبسط الناس أحوالاً، ولم يطلب لنفسه جاه ولا منصب ولا خلف بعده أي ثروة، بل عاش بينهم داعياً ومعلماً إلى أن توفاه الله، ودفن في عاصمة المالديف، ومن ذلك الحين إلى يوم الناس هذا والمالديف دولة إسلامية، نسبة المسلمين فيها ١٠٠٪ فرحم الله هذا الرجل العظيم وأسكنه الله فسيح الجنان.

* * * *



نجم الدين حسن الرماح (رحمه الله) ..

٦٩٤هـ

١٢٩٥م

مخترع أول طُربيد في التاريخ

نجم الدين حسن الرماح (رحمه الله)

٦٩٤هـ

١٢٩٥م

مخترع أول طُربيد[(١)] في التاريخ

نجم الدين حسن اشتهر باسم حسن الرمّاح أو الرماح نسبة إلى مهارته الفائقة في رمي الرمح، عاش في سوريا وعرف ببراعته وابتكاراته الحربية المذهلة، كان من صناع الأسلحة في العهد المملوكي، وقد نجى من الموت باعجوبة حيث أنفجر بيته نتيجة لبعض تجاربه في تطوير البارود الصيني.

وكان للرماح حلم في اختراع عسكري بحري لم يسبقه عليه أحد، فلما عرف السلطان المملوكي بذلك أمر بنقل الرمّاح من بيته ليسكن قرابة ساحل الشام، ليكون قريباً من البحر لإتمام تجارب اختراع سلاحه البحري الجديد.

وبعد إصرار ومثابرة نجح هذا العالم المسلم الذي لا يعرفه الكثير من اختراع أول طوربيد في التاريخ، ويعتبر كتاب الرمّاح «الفروسية والمناصب الحربية» أول مصدر قديم مؤرخ للبارود المتفجر، وقد دون

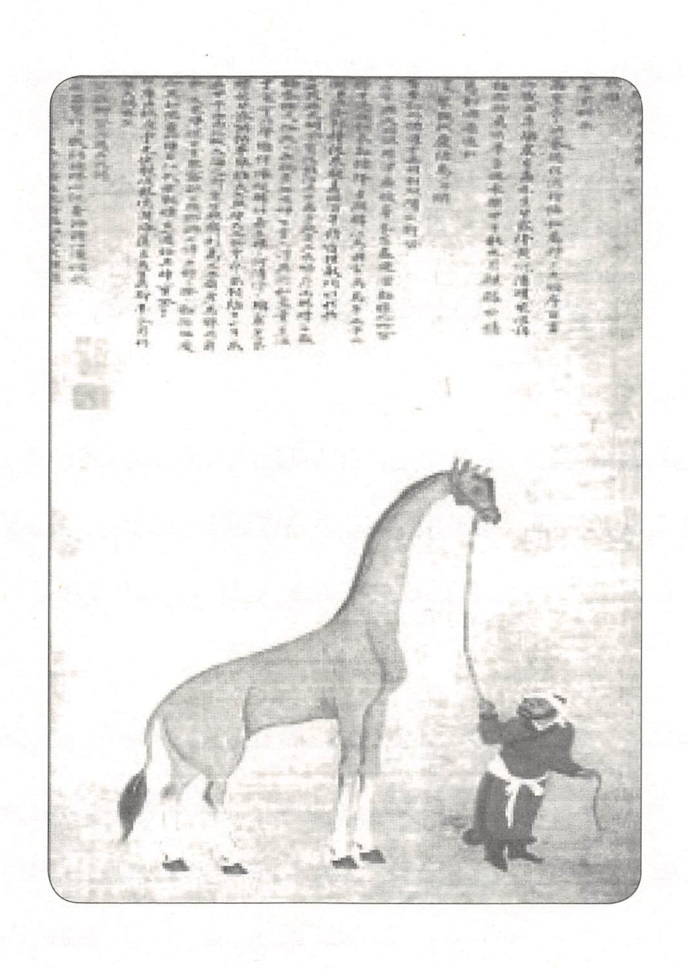
---

(١) الطُربيد صاروخ يستعمل لمحاربة السفن ويمكن إطلاقه من غواصة أو من طائرة، وميزته أنه يعمل تحت الماء.

في كتابه عشرات الوصفات المبتكرة لتصنيع البارود، وكذلك ضم كتابه ٢٢ مرحلة لصناعة أنواع الصواريخ، وكان يسمي الصاروخ (الطيار) والصواريخ (الطيارات)، ويعده المؤرخون وكبار العلماء أمثال - روجر باكون وسارتون - صاحب الفضل في تطوير الأسلحة الحربية القديمة واستخدام القنابل المتفجرة.

* * * *

▪ المصدر - نجم الدين حسن الرماح، الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق أحمد يوسف الحسن، منشورات معهد التراث العربي، حلب ١٩٩٨م.



حجي محمود شمس - تشنغ خه (رحمه الله) ..

٧٧٢ - ٨٣٦هـ

١٣٧١ - ١٤٣٣م

حضارة المسلمين في العصور الوسطى

حجي محمود شمس - تشنغ خه (رحمه الله)

٧٧٢ - ٨٣٦هـ

١٣٧١ - ١٤٣٣م

حضارة المسلمين في العصور الوسطى

في عام ٢٠٠٥م غادرت سفينة ذات طراز قديم ميناء مقاطعة شاندونغ في شرق الصين، وذلك لمحاكاة الرحلات البحرية القديمة التي كانت تعبر طريق تجارة الحرير المعروف من مئات السنين[١]... فما قصة هذه السفينة؟

قبل أكثر من ٦٠٠ عام ولد لأسرة مسلمة فقيرة طفل اسمه تشنغ خه واسمه بالعربي محمود شمس، انتقل من أسرته ليتربى في بلاط الأمير تشو دي، وكان ذلك بمنطقة بكين حالياً، وبدأ الطفل الصغير العمل في البحر وهو بعمر ١٢ عام فقط إلى أن تدرج في المناصب وبرع وأبدع في مجال تخصصه حتى تم تعينه أمير للأسطول البحري، وقضى من عمرة قرابة ثلاثين عاماً وهو يعمل في البحر.

قام برحلات عديدة حاملاً معه المنسوجات الحريرية والبضائع المتنوعة والمجوهرات والعقاقير الصينية، زار فيها البلدان التي تقع على سواحل

(١) صحيفة الشعب الصينية اونلاين عدد ٢٠٠٥/٣/١٥م، واحتفل بهذه المناسبة كل من إندونيسيا وسنغافورة.

المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقيا والخليج العربي والبحر الأحمر، وزار مكة المكرمة حاجاً، وقد عرض الصينيون مؤخراً مصحف الجيب الذي كان يحمله تشنغ خه في جميع رحلاته، وهو يعد كأقدم مصحف صغير في التاريخ[٢].

وثبت بالمخطوطات والوثائق أنه وصل إلى سواحل أمريكا قبل كرستوفر كولومبس بقرابة ثمانين عاماً، وكانت رحلاته السبع المشهورة تقوم على أساس السلام وتبادل الثقافات والمعرفة بين الشعوب ونقل الحضارة الصينية والبضائع للأمم الأخرى، ولم تكن للعدوان على الأراضي والشعوب[٣]، ولا للتوسع الاستعماري.

وهنا سنذكر بشكل موجز بعض التفاصيل الخاصة بأحد رحلاته، ليكون عندنا تصور عن ضخامة وقوة هذا الأسطول الذي كان مسالماً يحمل شعار التسامح والإنسانية، وليس موجهاً للسلب والنهب والتوسع في أراضي الغير كما جرت عليه العادة في العصور الوسطى.

في عام ١٤٠٥م انطلقت الرحلة البحرية الأولى وهي مكونة من ٣١٧ سفينة، وعلى متنها ٢٨٠٠٠ بحار بينهم الجنود والضباط بكامل أسلحتهم وعتادهم، كان غرض وجودهم تأمين الدفاع والحماية للأسطول، ومعهم عدد كبير من العلماء والأطباء والمترجمون والملاحون، وتم إطلاق اسم (سفن الكنز) على كُبريات السفن المشاركة في الرحلة، وذلك لكونها من أضخم سفن العالم في ذلك الوقت.

---

(٢) حجمه ٢,٧سم بعرض ١,٣ وأطلق عليه خبراء الآثار الصينيون بأنه الكنز الذي لا يقدر بثمن.

(٣) مأساة الهنود الحمر ومجازرهم أشهر من نار على علم بعد وصول كولومبس لأمريكا.

يقول البروفيسور البريطاني جوزيف نيدان: أنه لم تكن هناك دولة أوربية تضاهي في قوتها البحرية هذه القوة في ذلك الوقت[٤].

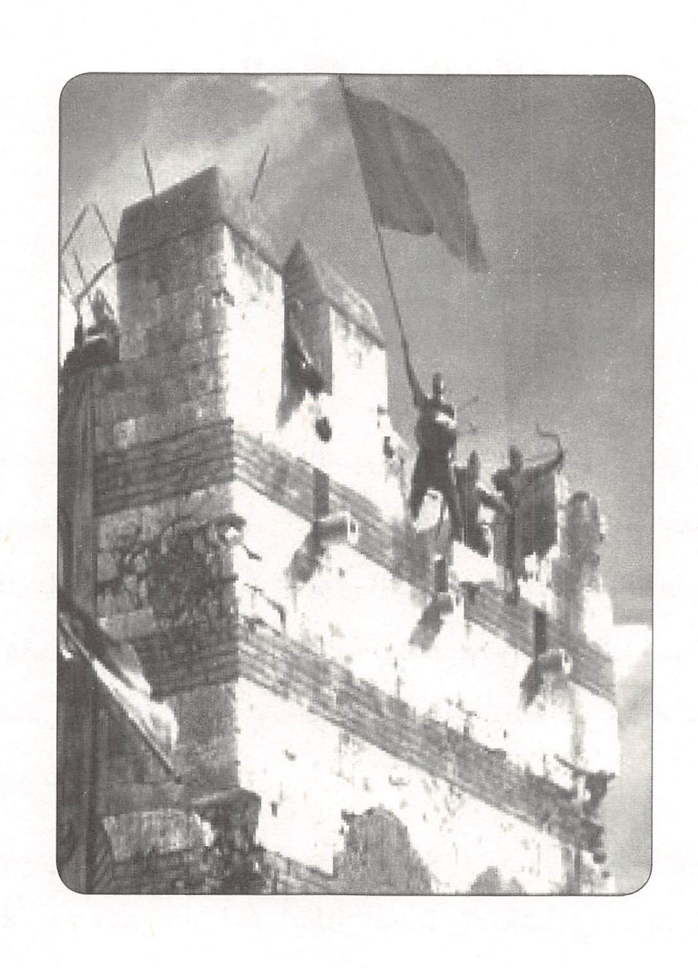
فمن الصعب تصور قيام أسطول بحري مسلح بهذه القوة والضخامة في ذلك الزمان تحديداً برحلة بحرية تجوب البلدان والمحيطات بهدف نشر الصداقة وتبادل الحضارات والتجارة والتعرف على الشعوب وإكتشاف أراضي جديدة، والمساهمة في رسم خطوط بحرية آمنة، ونشر الثقافات المختلفة.

كما أنه استطاع القائد حجي محمود من خلال رحلته القضاء على كثير من القراصنة الذين كانوا يهددون الاستقرار الدولي في البحار والمحيطات، واستطاع شق طرق بحرية جديدة لم يكن يعرفها العالم من قبل وذلك لتسهل التنقلات التجارية والسفر بين الدول والقارات.

دخل الأدميرال الصيني المسلم إلى التاريخ الإنساني من أوسع أبوابه كقائداً عسكرياً ورحالة ومستكشفاً، ودبلوماسياً محنكاً وقبل ذلك كله كإنسان متحضراً ينشر التسامح والسلام، حيث أن جميع رحلاته البحرية لم تشهد أية عمليات غزو أو استعمار ولا نهب ولا سلب لثروات الغير، وفي سنين عمره الأخيرة اختار أمير البحر حجي محمود العيش في مدينة نانجينغ وتحديداً في مكان يسمى جينغهاي بسفح جبل شيتسي حيث أقام هناك حتى فاضت روحه عام ١٤٣٥م عن عمر يناهز الرابعة والستين فرحمة الله عليه.

* * * *

(٤) شبكة الصين.



حسن الوباتلي (رحمه الله) ..

٨٣١ - ٨٥٧هـ

١٤٢٨ - ١٤٥٣م

حامل راية الفتح

حسن الوباتلي (رحمه الله)

٨٣١ - ٨٥٧ هـ

١٤٢٨ - ١٤٥٣م

حامل راية الفتح

قصة بطلنا حسن تذكرنا بالسيرة العطرة لجيل الصحابة رضوان الله عليهم وتحديداً الصحابي جليل القدر البطل الهمام جعفر الطيار رضي الله عنه، وذلك في معركة مؤته حين حمل الراية، فقطعت يده اليمنى، فحملها باليسرى فقطعت أيضاً، فحمل الراية بعضديه، وثبت حتى استشهد فبشر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن الله أبدله عن يديه جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء.

أما حسن الوباتلي[١] فلهُ قصة مشابهة إلا أن التاريخ لم ينصف هذا المجاهد الأسد، حسن كان أحد أبطال الجيش الانكشاري[٢] ولد في تركيا في قرية الوبات غرب مدينة بورصة، التحق مبكراً في الجيش العثماني، وكان ضخم البنية فارع الطول، وكان له شرف القتال تحت راية السلطان محمد الفاتح، ونال معه شرف البشارة النبوية (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

---

(١) يعرف أيضا بأسم حسن طوبال و حسن اولوباطلي.

(٢) الجيش الانكشاري - هي قوات الصفوة والقوة الضاربة في الجيش العثماني ويوكل إليهم المهمات الصعبة.

وعلى مدى ثلاثة وخمسين يوماً من هذه الحرب ورغم كل الدماء والشهداء، ورغم فشل كل محاولات اقتحام أسوار المدينة المنيعة إلا أن النفوس الكبيرة لا تعرف المستحيل، فما بالك بجيش أثنى عليه وعلى أميره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم !

كانت من أيام الله الخالدة التي لم يتوقف فيها سيل الدماء في سبيل تحقيق البشارة النبوية الشريفة، والقتال كان على أشده مستمر، والمدافع لا تهدأ وطبول الحرب تهز الأرض والتكبير لا يتوقف ليل نهار يزلزل المدينة الحصينة بمن فيها، هنا قرر السلطان الشاب في ساعة الحسم الدخول بكل قوة لإقتحام القسطنطينية، ونادوا في الجنود للمبادرة في الإقتحام، وتقدم لهذه المهمة الاستشهادية ثلاثين انكشارياً، وكونوا فرقة الموت وتعاهدوا على الشهادة.

فمن رأى أسوار القسطنطينية[٣] يعرف يقيناً أن المهمة شبه مستحيلة ويحتاج لتحقيقها معجزة، وبالفعل تجمع الأشاوس الأبطال يوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣م بعد صلاة الفجر، وانطلقوا كالريح بإتجاه الأسوار ورماة الجيش البيزنطي تنهال على رؤوسهم من كل جانب، وما إن وصلوا للأسوار إلا وأكثر من نصفهم قد استشهد، وأكمل حسن ورفاقه الأبطال الصعود والتسلق، وكان حسن يمسك درعه بيده اليسرى يستر بها رأسه[٤] من السهام والرمي، واشتد الرماة عليهم وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير لهذا المشهد الرهيب، وما إن بدئوا بتسلق الأسوار

---

(٣) أسوار مزدوجة شاهقة الارتفاع ومنيعة جدا وقائمة لليوم بمحاذاة البحر والبر بمدينة إسطنبول التركية.

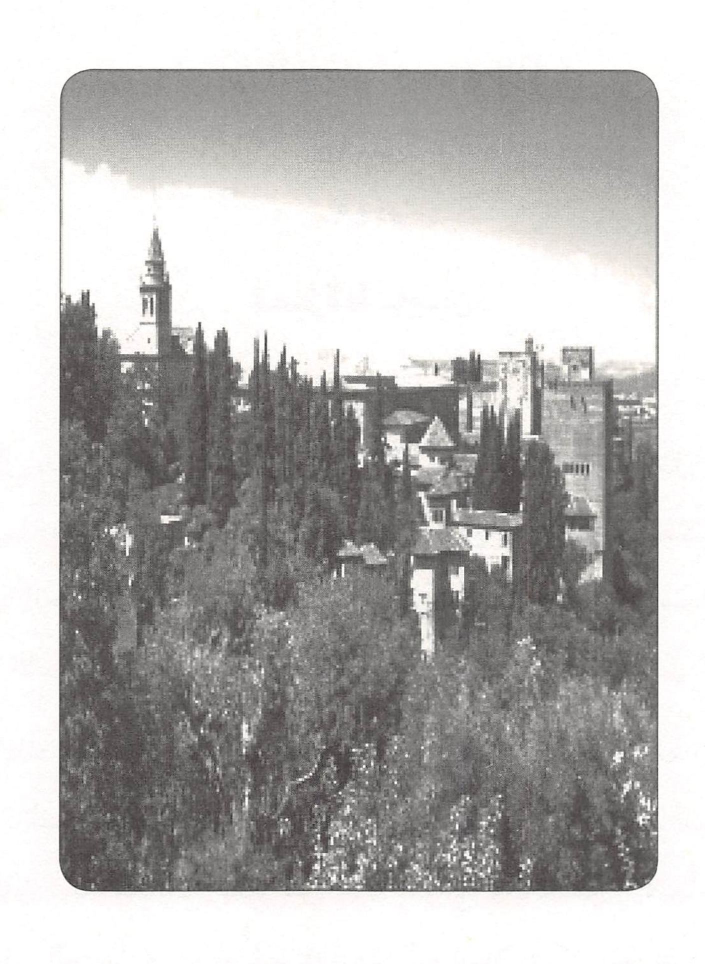
(٤) بصمات خالدة في التاريخ العثماني، جان ألبجوونج، ص٢٨.

الشاهقة إلا وقد استشهد البقية منهم، واستطاع حسن ومعه سيفه ودرعه والراية العثمانية الوصول للأعلى، وتجمعوا عليه البيزنطين في أعلى السور وأستبسل في قتالهم، ونجح في إسقاط رايتهم وغرس الراية العثمانية فوق أسوار المدينة، وما إن رفرفت الراية العثمانية حتى ألهبت حماس الجيش الإسلامي، وارتفعت المعنويات، وتزلزل الأعداء، وبدأ بعدها الهجوم الكبير على المدينة من كل جانب، وتم فتح ثغرة في الأسوار بفضل المدافع الجبارة التي كانت تضرب المدينة ليل نهار، واستطاع جيش الفاتح الدخول للمدينة، وسقطت القسطنطينية، وتحققت البشارة النبوية التي انتظرها المسلمين ثمانية قرون، وما إن صعدوا لأعلى السور إلا وجدوا حسن الوباتي يسبح في دمائه الطاهرة وبجسمه سبعة وعشرين سهم، فيا لها من تضحية ويا لها من شجاعة !

يقول المؤرخ أحمد آق كوندوز عن هذه القصة: (كلا ليست بأسطورة، والذين يقولون بهذا لا يستطيعون إنكار ما قاله وذكره المؤرخون البيزنطيون والمؤرخون الغربيون الآخرون من أمثال دوكاس وفرانجيس وكلوت)[٥].

* * * *

(٥) الدولة العثمانية المجهولة. أحمد آق كوندوز، ص١٥٨.



علي بن الفخار (رحمه الله) ..

٨٩٥هـ

١٤٩٠م

عزة المؤمن

علي بن الفخار (رحمه الله)

٨٩٥هـ

١٤٩٠م

عـــزة المـــؤمـــن

بعد أن بدأت تتهاوى مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى وصل الدور على مدينة سبطة وأصابها ما أصاب أخواتها من المدن الأخرى من التفكك واليأس، وانتهى بها الحال لسقوطها بيد الأسبان، واعقد ملك النصارى مجلساً لإتمام إجراءات الاستسلام وتسليم كافة مفاتيح الحصون المحيطة بسبطة.

بدأ الملك الإسباني في مجلسه يعطي ويجزل للقادة المسلمين بالأموال والعطايا نظير استسلامهم، وكان من بين هؤلاء القادة رجل اسمه علي بن الفخار كان بيده مفاتيح عدد من تلك المواقع والحصون، فلما جاء دوره لمقابلة ملك النصارى فرديناند وزوجته إيزابيلا يذكر المؤرخون أنه دخل شامخ الأنف وشديد الوقار، ثم خاطب الملك النصراني وزوجته قائلاً لهم: أنا رجل مسلم قائد لحصن طبرنة وبرشنة، تسلمت هذه الحصون للمحافظة عليها، لكن الذي عهدوا لي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة، وعادوا لا يطلبون سوى الأمان، وأصبحت هذه الحصون لكم، فابعثوا من يستلمها، فأمر فرديناند ملك النصارى بإعطائه الأموال والعطايا كما أعطى الذين قبله.

فامتنع عن قبول ذلك وقال للملك ولزوجته: أنا لم آت لبيع ما ليس ملكاً لي.. بل لأسلم ما جعلته الأقدار الإلهية ملكاً لكم، وليكن يقين عندكم أنني لو وجدت من يسعفني وينصرني كما يجب لكان الموت ثمناً لهذه الحصون بدلاً عن هذا الذهب الذي تعرضونه علي.

فأعجب ملك النصارى بشهامة وشجاعة هذا البطل. فقالت له الملكة: وهل لك حاجة عندنا نقضيها لك ؟

قال: نعم لي حاجة.. إني تركت في هذه الحصون كثيراً من المسلمين البائسين والضعفاء بنسائهم وأطفالهم، فحاجتي هي أن تعطياني عهداً ووعداً ملكياً بحمايتهم وإعطائهم الحرية في دينهم وأملاكهم.

فإزداد إعجاب الملك فيه لعزة نفسه ولحسن منطقه، فوعده ملك النصارى بذلك.

ثم قالت له الملكة: وهلا طلبت منا شيئاً لك ؟

فقال: كلا فقط أريد العبور بخيلي وبناتي لبلاد المسلمين في المغرب، فسمُح له بذلك.

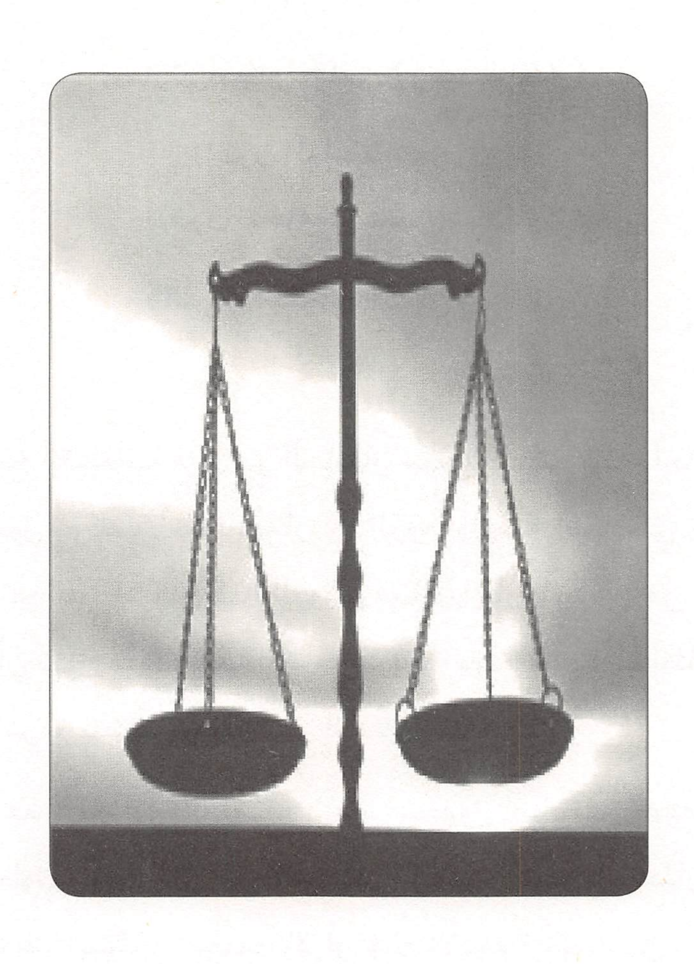
والسؤال هنا.. ما الذي كان يمنع هذا الشهم أن يأخذ من العطايا والذهب كما أخذ غيرة !

ففي الوقت الذي تغرق فيه السفينة والأغلبية يأخذون ما يمكن أخذه من أموال وعطايا نجد هذا الرجل الأبي يختار الهجرة لبلاد المسلمين تاركاً

- المصدر - الأندلس التاريخ المصور. د. طارق السويدان.

لهم أموالهم، ويخاطب ملك النصارى الطاغية بهذه الكلمات التي تنم عن شجاعته، ولم يطلب لنفسه شيئاً من حظوظ الدنيا ولكن طلب إنقاذ إخوانه المستضعفين، فلله دره من رجل عظيم.

* * * *



صاري خضر جلبي (رحمه الله) ..

القرن التاسع الهجري

القرن الخامس عشر الميلادي

قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار

صاري خضر جلبي (رحمه الله)

القرن التاسع الهجري
القرن الخامس عشر الميلادي

قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار

بعد فتح القسطنطينية أمر السلطان محمد الفاتح ببناء أحد المساجد في إسطنبول، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه ابسلانتي بالإشراف على بناء الجامع، إذ كان هذا الرومي معمارياً بارعاً، وكان من بين أوامر السلطان أن تكون أعمدة هذا الجامع مرتفعة بقدر حدده السلطان له، وأن تكون من المرمر لتضفي جمالاً على الشكل النهائي.

ولكن هذا المعماري الرومي - لسبب مجهول أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون إذن من السلطان، وعندما سمع السلطان (محمد الفاتح) بذلك استشاط غضباً، إذ أن هذه الأعمدة جُلبت من مكان بعيد، ولم يعد لها أي فائدة وهي بهذا الارتفاع القصير ولا يمكن إحضار أعمدة جديدة عوضاً عنها لبعد المسافة.

وفي ثورة غضبه أمر السلطان بقطع يد هذا المعماري، ونفذ الحكم على الفور وقطعت يده.

وما إن هدأ السلطان حتى ندم على فعلته إلا أنه كان ندماً من بعد فوات الأوان، وجراء هذه الحادثة توجه المعماري إلى القاضي صاري خضر

جلبي وهو قاضي اسطنبول الذي قد ذاع صيت عدالته بجميع أرجاء الدولة العثمانية.

اشتكى المعماري الرومي للقاضي على الظلم الذي لحقه من السلطان، ولم يتردد القاضي في قبول الشكوى، بل أرسل على الفور رسولاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي.

وفي اليوم المحدد لجلسة المحاكمة حضر السلطان إلى المحكمة، وتوجه للجلوس على المقعد، فقال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي... بل عليك الوقوف بجانب خصمك !

وقف السلطان محمد الفاتح بجانب خصمه المعماري الرومي الذي شرح مظلمته للقاضي، فقال القاضي للسلطان: ما ردك يا سيدي على ما سمعت ؟

قال السلطان: لقد صدق وهذا فعلاً ما حصل !

سكت الجميع ينتظر القاضي أن يتكلم، وسكت القاضي لفترة يفكر أمام هذه المعضلة التي أمامه ثم نطق فقال: حسب الأوامر الشرعية يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصاً.

ذهل كل من كان في القاعة وذهل المعماري الرومي، وارتجف دهشةً من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي لم يكن يدور بخلده ولا في خياله لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي، أما أن يحكم له القاضي بقطع يد فاتح القسطنطينية الذي

كانت كل أوربا ترتجف منه رعباً، فكان أمراً يفوق كل التوقعات.. وبصوت مرتجف وبعبارات متعثرة قال المعماري الرومي: يا سيدي القاضي أنا أتنازل عن دعواي وكل ما أرجوه هو أن تحكم لي بتعويض مالي فقط، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية لكل يوم طوال حياته تعويضاً له عن الضرر البالغ الذي لحق به، ولكن السلطان محمد الفاتح قرر أن يعطيه بدلها عشرين قطعة نقدية يومياً، تعبيراً عن فرحه لخلاصه من الحكم وتعويضاً له عما كان.

* * * *

- المصدر - روائع من التاريخ العثماني/ أورخان محمد علي ص٤٩.
- كتاب «سياحتْ نامه». «أوليا شلبي».



موسى بن أبي غسان (رحمه الله) ..

٨٩٧هـ

١٤٩١م

آخر مجاهدي الأندلس

موسى بن أبي غسان (رحمه الله)

٨٩٧هـ

١٤٩١م

آخر مجاهدي الأندلس

بطل إسلامي لا تكاد تجد له ذكراً في المراجع العربية بينما أرخ الغرب والأسبان قصة بطولته ؟

كان موسى بن أبي غسان من أعيان غرناطة ومن المقربين للقصر الحاكم فيها، ولا يُعرف عنه الشعر ولا التجارة، ولم يكن صاحب منصب، وكل ما يُعرف عنه أنه فارس لا يشق له غبار، ومع بداية تساقط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى لم يبق من الأندلس إلا غرناطة صامدة بأسوارها المنيعة.

واشتد عليها الحصار من الصليبين براً وبحراً وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وأصبح سقوطها ماثلاً أمام الجميع، وكأنها مسألة وقت فقط، وبعد حصار دام سبعة أشهر حتى قيل إن الخيل وهي مركب الحرب أوشكت أن تنقرض من غرناطة، لكثرة ما قتل منها في المعارك، وعم الإحباط واليأس على الجميع وانتشر الخوف والجوع خاصة مع قرب نفاذ المؤنة، وقل السلاح والعتاد واختفاء الناصر من المسلمين، فإمارات المغرب الإسلامي تعاني من الضعف والتفكك وتخشى القوة الصليبية، والدولة

العثمانية كانت جيوشها مشغولة تقاتل في شرق أوربا ولم تستطع إدراك الأندلس في أقصى الغرب.

أمام هذا الواقع الإسلامي المرير والواقع الداخلي الضعيف لغرناطة ظهر رجل كان يقول بأعلى صوته: لا للاستسلام في حين أن الكل كان يقول: نعم... إنه الفارس موسى بن أبي غسان.

بعد أن شارك موسى طيل حياته بعدة حروب ضد الصليبين وأثخن فيهم الجراح، تحول دفاعه عن غرناطة في ظل هذه الظروف إلى حرب كر وفر، فكان يفتح أسوار المدينة بشكل دائم ويخرج مع مجموعة صغيرة من المجاهدين، ليلتحموا مع سرايا الجيش الإسباني، ويقتلون منهم ما استطاعوا، ثم يفرون إلى داخل المدينة، وهكذا دواليك.

ولكن ما عسى هذا الحال أن يفيد أمام جيوش منظمة بأعداد هائلة تحاصر غرناطة من كل جانب ؟!

مع مرور الوقت شعر الجميع أن هذه المقاومة لن تجدي نفعاً، وأنها مضيعةً للوقت، وشيئاً فشيئاً بدأ يتخلى عنه القلة القليلة من المجاهدين الذين كانوا معه بعدما دب اليأس في نفوسهم، وبقي هذا البطل وحيداً صامداً يصرخ على مسامعهم.. لا للاستسلام.

بدأ يجتمع أعيان المدينة وأمراؤها في قصر الحمراء للبحث والتشاور لأفضل طريقة لتسليم غرناطة للأسبان... كان تسليم المدينة له أثر نفسي عميق جداً في نفوس الجميع حيث أنها آخر مدن الأندلس وتسليمها يعني انتهاء ثمانية قرون من الحكم الإسلامي لأسبانيا.

كان ابن أبي غسان في هذه الاجتماعات يحاول شحذ الهمم للقتال والمقاومة، ويكرر عليهم قوله: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليأت ليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت مدافعاً عنه، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين)[1].

وبدى كأنه يتكلم بلغة أخرى لا يفهمها الحضور، فهم في وادٍ وهو في وادٍ آخر.. واتفق الجميع على وجوب التسليم[2]. فكرر عليهم موسى بن أبي غسان القول: (لنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة، ولا أن أحصى بين الذي شهدوا تسليمها)[3].

ولكن ما عسى هذه الكلمات الملتهبة أن تفعل بحال أمة هرمت وتمزقت، فكان كلامه بينهم مثل قطرات الماء سرعان ما تتبخر.. فهم عاقدون العزم وماضون في طريقهم للإستسلام ونفوسهم قد ركنت وانتهت.

وما إن قُرئت وثائق تسليم غرناطة أمام الحضور للمصادقة والتوقيع عليها حتى سُمع بكاء البعض لعظمة وجلالة الموقف فصرخ فيهم ابن أبي غسان: (اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء... وحاشا أن يقال: إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها)[4].

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، العصر الرابع، ص٢٣٨.

(٢) أخبار العصر ص٤٨-٤٩، نفح الطيب ج٢، ص٦١٥.

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، العصر الرابع، ص٢٤١.

(٤) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، العصر الرابع، ص٢٥٥.

وكانوا يسمعون كلامه ولكن بلا مجيب... وكان في وثيقة الاستسلام ضمانات أسبانية كثيرة للمسلمين، وكأن نفوسهم ارتاحت لما سمعوا من تلك الوعود العريضة فقاطعهم ابن أبي غسان وقال: (لا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم[٥]... إن الموت أقل ما نخشاه، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها وتدنيس مساجدنا وتخريب بيوتنا وهتك نسائنا وبناتنا... هذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الموت الشريف أما أنا فوالله لن أراه)[٦].

ثم وثب كالأسد غاضباً، وغادر هذا الاجتماع المذل، واتجه إلى بيته مسرعاً، ثم خرج منه حاملاً ما استطاع من السلاح وركب فرسه وفتح أبواب غرناطة وانطلق منها على فرسه سريعاً للخارج، ويقال: إنه لم يُر بعد ذلك اليوم أبداً !

ويروي تكملة القصة المؤرخ الأسباني أنتونيو أجابيلا: خرج فارس مجهول في ذلك التوقيت من أبواب غرناطة، وهجم على سرية إسبانية كانت قرب نهر شينيل مكونة من خمسة عشر فارساً نصرانياً، وكان هذا الفارس المجهول حسب وصفه يقاتل كالشيطان.. كأنه يقاتل للإنتقام.. يقاتل ليقتل وليس لينتصر، يقاتل دون أن يبالي ما يصيبه من طعنات.. فأفنى معظم السرية حتى أصابه الإرهاق، وأصيب بطعنة، فسقط هو وفرسه وسقط منه سيفه، فأخرج خنجره وأجهز على البقية منهم حتى تمكنوا منه، فقفز في النهر

(٥) الضمانات مثل حفظ الأنفس والمساجد والشعائر والأموال والأملاك... وقائمة طويلة ما أوفى النصاري بأي منها وصدق ابن أبي غسان.

(٦) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، العصر الرابع، ص٢٥٥.

كي لا يتم أسره، وسرعان ما غرق وبلعه النهر لثقل لباسه ودرعه ولشدة ما أصابه من الجروح والإرهاق، وطويت صفحة هذا الرجل العظيم الذي كان آخر مجاهدي الأندلس.

* * * *



إبراهيم باشا البرغلي (رحمه الله) ..

٨٩٩ - ٩٤٢هـ

١٤٩٤ - ١٥٣٦م

وإذا لم يكن من الموت بدُ ... فمن العار أن تموت جبانا

إبراهيم باشا البرغلي (رحمه الله)

٨٩٩ - ٩٤٢هـ

١٤٩٤ - ١٥٣٦م

وإذا لم يكن من الموت بدُ ... فمن العار أن تموت جبانا

قصة هذا البطل عجيبة فهي تعكس سرعة تقلب الزمان على صاحبه، ولد الطفل إبراهيم لأبوين مسيحيين في مدينة برغا اليونانية، وكان والده صياد سمك يوناني، وتشير أغلب المصادر التاريخية إلى أنه تم خطفه من قبل القراصنة وهو طفل بعمر سبع سنين، لينتهي به المطاف إلى أن يُباع في سوق العبيد لتشتريه أرملة في مدينة ماغنيسيا، فعاش بخدمتها وأسلم على يديها، وأحسنت تربيته وتعلم عندها فنوناً ومهارات شتى، منها العزف على الكمان.

وفي أحد الأيام أثناء مرور موكب الأمير سليمان القانوني (كان ولياً للعهد في حينها) سمع الأمير موسيقى ساحرة لعزف كمان آتياً من بعيد، فاقترب من مصدر الصوت فإذا خلفه طفل صغير، فأُعجب الأمير بهذا الطفل، واشتراه من تلك الأرملة[1].

لفت هذا الطفل الموهوب انتباه الأمير سليمان بفطنته وذكاؤه ووسامته وشخصيته البارزة التي فيها ملامح لمستقبل رجل استثنائي بكل المقاييس،

(١) التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية - مصطفى أرمغان ص٧١، الدار العربية للعلوم والنشر.

كان هذا الموقف الذي تملأه المصادفة نقطة تحول كبيرة في حياة إبراهيم وفي تاريخ الدولة العثمانية ككل، وبسرعة البرق انتقل الطفل اليوناني الصغير من حياة الظل في الأرياف إلى القصور الملكية لتُصقل مواهبه على يد أشهر المعلمين في عصره وتَشرب منهم شتى أنواع المهارات العلمية والعسكرية والسياسة والثقافية، بالإضافة لإتقانه لعشر لغات تقريباً كلغته الأم[٢].

ويوماً بعد يوم وعاماً بعد عام كبر إبراهيم وكبرت صداقته مع ولي العهد حتى أصبحوا كالأخوة.

واستمر الحال كذلك حتى وفاة السلطان سليم وتولى بعده الخلافة ابنه سليمان، وعلى الفور بدأ الخليفة الجديد بتولية صديق طفولته إبراهيم سلسلة من الوظائف الحكومية المرتبطة بالسلطان بشكل مباشر، بدءاً من المسؤول الأول للجناح الخاص للسلطان إلى أن انتهى به الأمر ليصبح القائد العام للجيش العثماني ووزيراً أعظم للإمبراطورية العثمانية وهو بعمر ٢٨ سنة فقط، ويعتبر هذا المنصب الحساس ثاني أهم منصب في الدولة، ولم ينته الأمر عند ذلك بل تعدت علاقة الثقة والأخوة بينهما كل الحدود، ليتوج إبراهيم بالزواج من أخت السلطان سليمان وهي السلطانة خديجة !

هذا الصعود الصاروخي في المناصب سبب له كثير من العداوات والحساد من بعض كبار المتنفذين في الدولة، فلم يكن مقبولاً عندهم أبداً أن يتخطى عبد مسيحي ابن صياد سمك يوناني كل رجالات الدولة والوزراء

(٢) سلطان حكم العالم (القانوني)، طلحة أوغرلو إلي، ص٢٢٢.

ليصبح صهراً للسلطان ووزيره الأول وقائداً لجيش أقوى دولة في العالم، حتى إن إبراهيم نفسه طلب من السلطان أن يتريث ويخفف من سرعة وتيرة هذه الترقيات[٣].

يقول المؤرخ أكمل الدين إحسان أوغلو عن برتوكول المناصب في الدولة العثمانية: (في حالة عزل الوزير الأعظم أو وفاته كان الأغلب يجري تعيين الوزير الثاني أو الثالث بدلاً منه، أما مسألة ترقية إبراهيم باشا من منصب رئيس الغرفة الخاصة إلى منصب الصدارة العظمى فهي حادثة نادرة)[٤].

برع إبراهيم باشا في كل المهمات والمناصب التي أوكلت له، فهو مؤسس الدولة المصرية واقتصادها[٥]، وكان سياسياً لامعاً، وعسكرياً فذاً وهو صاحب خطة فتح بلغراد، وهو مهندس معركة موهاج الشهيرة التي سُحق فيها جيش التحالف الصليبي بالكامل، وهو هازم الجيوش الفارسية، وفاتح بغداد، وفاتح عاصمة الشاه تبريز، وفتح في ١٣ عاماً فقط ١٨٠ قلعة وحصن، وبهذا يكون إبراهيم باشا البرغلي أكبر قائد عسكري إسلامي عبر التاريخ من حيث عدد فتوحات القلاع والحصون، وقد وجد في مذكراته الشخصية بعد موته خططاً لفتح إيطاليا والأراضي الجديدة «أمريكا».

لكن كيف انتهت سيرة هذا الرجل صاحب كل هذه الإنجازات والطموح؟

---

(٣) وهذا يوضح شدة ذكاء هذا الشاب الصغير، حيث علم أن سرعة الترقيات ستجلب له المشاكل من الحاقدين والحساد والطبيعي لشاب بعمره هو الحماس والفرح بهذه المناصب.

(٤) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إكمال الدين اوغلو، المجلد الأول، ص١٧٨.

(٥) سلطان حكم العالم (القانوني)، طلحة أوغرلو إلي، ص٢٢٢.

بدأ مسلسل نهاية إبراهيم حينما تزوج السلطان سليمان بجارية روسية اسمها روكسلان وأنجبت للسلطان عدة أبناء ذكور، وقد افتتن بها السلطان جداً، وكان لطموح هذه الجارية الروسية علامة فارقة في حياة إبراهيم بل في تاريخ الدولة العثمانية ككل.

بدأت الجارية الروسية تطمح وتخطط ليكون أحد أبنائها هو الخليفة الوارث للعرش العثماني، وهذه الأمنية لم يكن ممكن تحقيقها، حيث أن ولي العهد الشرعي لسليمان هو ابنه الأكبر مصطفى وهو من زوجته الأولى، وبإتفاق الجميع كان هو الأكثر كفاءة واقتدار لهذا المنصب، وكان بطبيعة الحال الوزير إبراهيم هو السند الأول والداعم الأكبر لولي العهد الأمير مصطفى.

ومع مرور الوقت حصلت الجارية روكسلان (السلطانة خرم)[٦]، (وهو اسمها بعد إسلامها) على نفوذ متزايد لدى السلطان سليمان حتى أصبحت تتصرف وكأنها زوجته الوحيدة، وبدأت بتدبير خطتها وذلك بإتباع سياسة تتسم بالصبر والدقة والمؤامرات، واستمرت على ذلك سنوات طويلة، ونذرت نفسها لهذا العمل، ولم يكن ممكناً تحريك رجل كإبراهيم ولم يكن ممكناً شراءُ ذمته لتحقيق أحلامها وطموحها، ويقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا: إن أحد أسباب سقوط إبراهيم باشا وإعدامه فجأة هو المؤامرات الدقيقة الخفية التي لا تطفو على سطح الماء للسلطانة خرم التي حفرت البئر له[٧].

---

(٦) سماها بذلك السلطان سليمان، وخرم في اللغة العثمانية، تعني الثغر المبتسم.

(٧) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الأول ص٣٤٩، الدار العربية للموسوعات

اتبعت السلطانة خرم عملاً ممنهجاً لتشكيك السلطان وتخويفه من النفوذ الكبير لوزيره الأول إبراهيم حتى استطاعت أن تزرع الفتنة وتوغل صدر سليمان على صديق طفولته وصهره ووزيره وقائد جيوشه إلى أن كبرت هذه الشكوك والمخاوف في ذهن سليمان حتى تملكته الوساوس، فقرر في صمت إعدام إبراهيم وذلك لإزاحة هذا القلق والخوف المتزايد عن نفسه.

بدأ السلطان بالتحرك الفعلي لذلك، وفي ١٥ رمضان عام ٩٤٢هـ دعاه السلطان لتناول السحور معه على انفراد، وتكررت هذه الدعوة لسبعة ليالي متتالية، وكأن السلطان كان متردداً في التضحية برفيق دربه إبراهيم، أو كأنه كان يصارع قلبه لإتخاذ القرار الصعب، أو كأنها كانت جلسات وداع أخيرة لحبيب روحه وصديق طفولته !

وفي الليلة السابعة وتحديداً في ٢٢ رمضان طلب منه السلطان أن يبيت تلك الليلة في القصر عنده، وانصاع إبراهيم لذلك ليجدوه بعدها مقتولاً خنقاً في غرفة نومه في قصر توبكابي بأوامر من السلطان نفسه.

ولم تذكر أي من المصادر التاريخية أي تهمه واضحة ضد إبراهيم باشا سوى الصراع العائلي الذي عكر صفو السنوات الأخيرة من عهد سليمان، وعصف بمكانة الوزير الأعظم إبراهيم باشا، وحاول بعض المؤرخين وضع مبررات لمحاولة فهم هذه الحادثة الغير مفهومة، فقال بعضهم بأنه طامع في عرش المجر ثم اتُهم بأنه طامع في العرش العثماني نفسه، وهما تهمتان لم يقم عليهما أي برهان حقيقي[٦].

---

(٦) تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، وديع أبو زيدون، ص١٢٢.

ولم ينقل لنا أي من المصادر التاريخية إجراء أي محاكمة ولا إعطاء المتهم أي مساحة لسماع التهم الموجهة ضده فضلاً عن الدفاع عن نفسه تجاهها.

وتكمن عظمة هذا الرجل النادر الفذ فضلاً عن حنكته السياسة وعظمته العسكرية وثقافته الواسعة في كونه وجِد في مذكراته الشخصية بعد موته ما يثبت بعلمه بنية السلطان لاغتياله، وكان بإمكانه طوال هذه الليالي السبعة الأخيرة التي سبقت إعدامه أن يهرب، أو أن يبادر بقتل السلطان لكونهما منفردين سوياً بشكل يومي إلا أنه اختار أن يموت بشرف، ويواجه قدره بشجاعة وذلك وفاءً لأخيه وصديقه ورفيق دربه السلطان سليمان، وبذلك انطوت صفحة مشرفة ومؤلمة لهذا الرجل العظيم وهو بعمر ٤٣ سنة فقط.

* * * *



الأمير شهزاده مصطفى بن سليمان (رحمه الله) ..

٩٢٢ - ٩٦٠هـ

١٥١٥ - ١٥٥٣م

الأمير المظلوم

الأمير شهزاده مصطفى بن سليمان (رحمه الله)

٩٢٢ - ٩٦٠هـ

١٥١٥ - ١٥٥٣م

الأمـيـر المظـلـوم

في حقبة السلطان سليمان القانوني كانت الدولة العثمانية في أقوى قوتها وفي أوج ازدهارها، كان أكبر أبناء السلطان سليمان الأمير مصطفى وهو ولي العهد المنتظر واللائق للخلافة العثمانية من بعد والده، وهو ابنه الوحيد من زوجته ماه دوران خاصكي.

نشأ الأمير مصطفى تحت رعاية ملكية تؤهله للعرش العثماني، فتلقى منذ نشأته تعليماً وتربية دينية خاصة ومهارات عسكرية متنوعة، وعلى ذلك كبرَ وكبرت معه خصال الملك من التواضع والكرم والشجاعة وحسن الخلق مما جعله الأمل المنشود للقصر والجيش والشعب، وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط(١).

وكان كل شيء يبدو على ما يرام إلى أن شاء الله أن يكون لهذا الأمير الشاب قصة فيها كثير من الألم والعِبر، بدأ مسلسل الأحداث حين تزوج والده السلطان سليمان بجارية روسية اسمها روكسلان وهي تعرف بالمصادر

(١) أطلس تاريخ الدولة العثمانية، د. سامي المغلوث، ص٣٩٥.

التاريخية بالاسم العثماني (السلطانة خرم) وهو الاسم الذي اختاره لها السلطان بعد إسلامها.

أنجبت السلطانة خرم لسليمان عدداً من الأمراء الذكور، واجتهدت السلطانة في تدبير المكائد والخطط لإزاحة ولي العهد الشرعي الأمير مصطفى عن الطريق لفتح المجال لأحد أبنائها لوراثة العرش العثماني.

كانت حظوظ منافسة أحد أبنائها لمصطفى شبه مستحيلة، لأنه الأكبر سناً بين أخوته، ولأنه لا يجاريه أحد منهم من حيث الكفاءة وحب الناس والجيش له، فلم يكن للسلطانة خرم من مجال للوصول لأهدافها وتحقيق طموحها الكبير إلا من خلال تدبير المؤامرات والدسائس ضد الأمير الشاب لإزاحته عن ولاية العهد.

تعاونت السلطانة خرم مع عدد من المتنفذين بالدولة أبرزهم الوزير الأول رستم باشا[٢] للوصول للغاية المبتغاة وبعد سنين من طول النفس والتخطيط الدقيق نجحت محاولات التشكيك وزرع الفتنة بين السلطان الأب والأمير الابن، إلى أن تم إقناع السلطان بأن ابنه مصطفى خائن ومتمرد، وذلك من خلال رسالة مزورة بشكل فني وضعوها بين يدي السلطان وتحمل ختم الأمير.

(٢) رستم باشا هو الوزير الأعظم الذي ظل في منصبه أطول مدة في عهد القانوني، غير محبوب من طبقة الشعب والمثقفين، بخيلاً تجاه الأشخاص وإن كان كريماً في إنشاء المؤسسات الاجتماعية الوقفية والخيرية خلف مؤسسات خيرية تدهش العقل، حصل على قسم من ثروته عن طريق الرشاوي، له شهرة سيئة كإدخال الرشوة إلى الدولة العثمانية. ماكر متآمر لديه استعداد للظلم، وحازم في الأعمال الحكومية ولا يبتسم. موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الاول ص٣٥١-٣٥٢، الدار العربية للموسوعات.

كانت الرسالة المزورة موجهة إلى شاه الدولة الصفوية التي تعتبر العدو اللدود للدولة العثمانية آنذاك، وكان مضمونها أن الأمير مصطفى يخطط لمصاهرة الشاه والتحالف العسكري معه لإسقاط والده السلطان سليمان عن العرش.

وتم بمكر شديد اختيار توقيت وصول الرسالة ليد السلطان، فقد كان السلطان خارجاً على رأس جيشه في حملته العسكرية ضد الصفويين، والأمير مصطفى كان والياً في حينها لأحد الولايات العثمانية البعيدة، وقد جهز الأمير جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ولحق بمعسكر والده، وذلك بهدف مساعدته في هذه الحرب.

وبعد قراءته للرسالة المزورة قام الوشاة بإقناعه بأن الأمير قادم على رأس جيشه للهجوم على السلطان لتنفيذ الاتفاق المخطط له مع الصفويين، وأقنعوه بهذه الفكرة.

وفي ذلك العصر كانت موالاة العدو الصفوي تعتبر خطأً أحمر وخيانة عظمى، وسريان التشيع في الأناضول كان هاجساً كبيراً للدولة العثمانية، ونجحت هذه المكيدة في إقناع السلطان بخيانة ابنه مصطفى، وعلى إثر ذلك تم إصدار فتوى فورية من شيخ الإسلام مفتي الدولة بإعدام الأمير.

وعلى ضوء هذه الأحداث المتتالية أرسل السلطان للأمير مصطفى رسالة عاجلة مفادها.. لا تقترب بجيشك أكثر، وعسكر بعيداً عنا، ثم أحضر إلى وحدك !

كان أمر الاستدعاء بهذا الشكل فيه كثير من الريبة والشك، ويحمل بطياته معاني واضحة الدلالة وذلك لعلم الأمير بما يحفرُ له من مكائد وبما

يحاك ضده من الدسائس، زادت قناعته وقناعة مستشاريه أن الموضوع ليس طبيعياً أبداً وأن بوادر الخطر تلوح في الأفق، وهنا طلب منه وزرائه ومرافقوه أن لا يذهب للسلطان وأن لا يطيع هذا الأمر، بل منهم من أيقن تماماً أن اطاعة هذا الأمر وذهابه لوالده، يعني الموت المحقق.

حصلت هذه الواقعة والأمير بعمر ٣٨ سنة وهو في عز قوته وشبابه، وكل الجيش والشعب موالي له وينتظرون جلوسه على العرش العثماني، بينما كان والده السلطان قد كبر وشاخ في العمر، ولم يعد يملك القوة والقدرة التي كانت له من قبل، وبناءً عليه كان الخيار الأمثل لبعض مستشاريه هو أن يدافع الأمير عن نفسه بالقوة ويزيح والده السلطان عن الخلافة وأن يعلن نفسه سلطاناً للدولة العثمانية، وأن كل الظروف المحيطة كانت تصب في صالحه وهي مهيأة لذلك، وأن هذا هو الحل الوحيد أمام دفع هذا الخطر الواضح الذي كان يهدد حياة الأمير.

ولكن كانت مبادئ مصطفى وحبه لوالده أكبر من أن ينجر خلف هذه الدعوات بحجة الدفاع عن النفس، فقرر هذا الأمير العظيم أن يبيع عاجل الدنيا بآجل الآخرة وأن يواجه قدره بكل شجاعة وإخلاص، فترك جيشه وسلاحه وحمل روحه على كفه ونفذ الأمر رغم معارضة مستشاريه ومحبيه، وقدِم إلى والده وحيداً أعزل كما طلب منه، وما إن دخل مصطفى خيمة والده حتى هجم عليه الجلادين الذين كانوا ينتظرونه في الداخل ونفِذ فيه حكم الإعدام خنقاً حتى الموت بأمر من السلطان.

يعتبر قتل الأمير مصطفى أحد أبشع وأشأم الأحداث التي جرت على عهد القانوني، وراح السلطان سليمان ضحية لدسائس عديدة، وقسا على

أغلى أبنائه[٣]، ويقول البروفسور أحمد آق كوندوز عن هذه الحادثة: (كانت خاطئة والشهود زور).

فقُتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه، وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان[٤].

وما أن انتشر خبر إعدام ولي العهد مصطفى إلا وعمَّ الاستياء بصورة كبيرة، وأظهر الجيش عدم رضاه وسخطه، وعم فيه التمرد والعصيان وكانت ردود الفعل شديدة، واضطر السلطان سليمان لتهدئة الأوضاع فعزل عضو المؤامرة الكبير رستم باشا[٥] من منصبه.

وبعد هذه الفاجعة بأشهر قليلة توفى الابن الآخر للسلطان سليمان الأمير جهانكير بسبب حزنه وألمه على أخيه مصطفى الذي هز إعدامه بهذه الصورة البشعة كافة أرجاء الدولة العثمانية وأنتشر فيها كثير من قصائد الوداع والرثاء عليه[٦].

* * * *

(٣) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الأول ص٣٥٠، الدار العربية للموسوعات.

(٤) تاريخ الدولة العليه العثمانية، محمد فريدبك المحامي، ص٢٤٦.

(٥) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الأول ص٣٥٠، الدار العربية للموسوعات.

(٦) عبر عصور الدولة العثمانية أنتشر قصائد رثاء كثيرة على الأمير المظلوم وأشهرها كان رثاء يحيى تشالي جالي أحد أشهر شعراء الدولة العثمانية في القرن الـ ١٦ بقصيدة (رثاء الأمير)، والتي نُفي بسببها وكاد يُقتل بعدها.



محمد بن أمية (رحمه الله) ..

٩٢٦ - ٩٧٦هـ

١٥٢٠ - ١٥٦٩م

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

محمد بن أمية (رحمه الله)

٩٢٦ - ٩٧٦هـ

١٥٢٠ - ١٥٦٩م

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

قصته هذا البطل تدمي القلب وتذكرنا بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[١].

وقعت كارثة سقوط الأندلس عام ١٤٩٢م وسلمت غرناطة آخر مدن المسلمين في الأندلس للصليبين وفق معاهدة وشروط ضمنت سلامة المسلمين على أرواحهم وأموالهم وحرياتهم في العبادة وحقوق آخرى كثيرة.

ولكن ما لبث الصليبيون بعد زمن بسيط أن نكثوا بكل هذه العهود والمواثيق، ولم يبق منها شرط واحد إلا وأخلوا به، فحولت المساجد إلى كنائس ومنع اللباس الإسلامي ومنع الحجاب وأجبروا المسلمين على الدخول في النصرانية، وأجبروهم على تغيير أسمائهم الإسلامية لأسماء نصرانية، وأجبروا على تعميد مواليدهم بالكنيسة، وتعليمهم الإنجيل وكل هذا تحت سلطة محاكم التفتيش التي عمدت بمجرد الشبهة لاستخدام أبشع أنواع التعذيب بكل الطرق الوحشية التي لا تخطر على بال بشر، حتى أصبح مشهد حرق المسلمين في الطرقات شائع جداً.

---

(١) سورة الأحزاب، (آية: ٢٣).

ودعونا نستعرض رسالة بعث بها أهل الأندلس في ذلك الوقت للسلطان العثماني سليم الثاني يشرحون فيه واقع حالهم طالبين منه النصرة، وهي تختصر كثيراً من شرح أحوالهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - نص الرسالة (استمعوا إلى قصة الأندلس وهي تلك الأمة العظيمة التي غدت اليوم ضعيفة، يحيط بها الكفار من كل صوب وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعي لهم، وفي كل يوم نسام سوء العذاب، ولا حيلة لنا إلا المصانعة حتى ينقذنا الموت مما هو أشر وأدهى، وقد حكِّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمة، في كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جديدة، ونُرغم على مزاولة شعائر النصرانية وعبادة الصور، وهو مسخ للواحد القهار، ولا يجرؤ أحدٌ منا على التذمر أو الكلام، وإذا ما وقع قرع الناقوس ألقى القس عظته بصوت أجش، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير، ثم تنحني الجماعة أمام الأوثان دون حياة ولا خجل،.. ومن عبدالله بلغته قُضي عليه بالهلاك، ومن ضُبط يُلقى في السجن ويُعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم)[٢].

واستمر هذا الإجرام والاضطهاد لعشرات السنين، وفي ظل هذه الظروف الصعبة ولِد طفل لأسرة قد تم تنصيرها بالقوة وأسماه والديه فرناندو ديبالور[٣]، ولك أن تتخيل طفلاً نشأ في بيئة نصرانية، ولا يعلم من الدنيا شيئ إلا أن اسمه فرناندو ! ولكن الإسلام كما قيل يغفو ولا ينام ويمرض ولا يموت.

(٢) انبعاث الإسلام بالأندلس، علي المنتصر الكتاني، ص٩٥.

(٣) Fernando de Valor (بقايا المسلمين بالأندلس يجبرون على مثل هذه الأسامي).

كان الطفل فرناندو ذكياً وشجاعاً وكثير الإطلاع حتى عرف ماضي أجداده، وأصبحت نفسه تواقة لنصرة دينه وسابق حضارته الإسلامية ومتعطش لرفع الظلم الذي لحق بأهله ووطنه، فكان يتحرى الفرصة لذلك، ونتيجة للقهر والاضطهاد الجماعي والقتل المنهج قرر بقايا المسلمين في الأندلس الثورة على الظلم.. فإما النصر أو الشهادة[٤].

بدأ فرناندو بالحضور مع قادة الثورة وسط تستر شديد وقرروا إرسال مندوبين عنهم لكافة المدن للتنسيق بحيث تكون ثورة عارمة تجتاح كل المدن الأندلسية في وقت واحد، وأن تكون القيادة بينهم موحدة لتحقيق النصر، وتم بالفعل أخذ التدابير وكافة الترتيبات لذلك إلا أن مراقبة الأسبان لهم أدت إلى تأجيل شرارة البدء لعدة مرات، واستمر هذا التنسيق والعمل بسرية لشهور، حتى اجتمع قادة الثورة[٥]، وحضر ممثلون من كل المناطق المختلفة، واتفقوا على بيعة سلطان لهم قبل البداية ليكون لهم مركز قيادة موحد، وقع الاختيار بالشورى بينهم على فرناندو ديبالور، وكان في الثانية والعشرين من عمره (ولك أن تتخيل مهمة ضخمة بهذا الحجم تعطى إماراتها لشاب صغير بهذا العمر!).

فبايعه الحاضرون لشجاعته ولنسبه الذي يعود لبني أمية، وأقسم الأمير الشاب على أن يموت في سبيل دينه وأمته، فغير أسمه من فرناندو لمحمد بن أمية تأسياً بصاحب الأندلس وغرناطة[٦]، ثم نهض وصلى بالحاضرين، ثم عاهدهم على النصر أو الشهادة، وكانت زوجته واسمها بريانده بيريز وباقي

(٤) كان ذلك بتاريخ ١٥٦٨م، أي بعد ٧٦ سنة من سقوط الأندلس.

(٥) كان هذا الاجتماع بتاريخ ١٥٦٨/٩/٢٧م.

(٦) دولة الإسلام في الأندلس،العصر الرابع، محمد عبدالله عنان، ص٣٦٥.

نساء المجاهدين يعملون على الدعم الكامل للثورة بتأمين كل ما يحتاجه الرجال لنجاحها، وبعد الاجتماع اتفقوا على أن يكون انطلاق الثورة في مطلع سنة ١٥٦٩م.

وبالفعل بدأ التحرك بالتاريخ المحدد بإمكانات متواضعة وهمم عالية، وبدأ الصدام المسلح واحتل المسلمين جميع جبال البشرات ووادي الإقليم بعد القضاء على كل المعسكرات والثكنات النصرانية التي بالمنطقة، بعد ذلك أخذ ابن أمية يدعو المجاهدين والأهالي للرجوع للأصالة الإسلامية، ونبذ الألقاب والأسماء النصرانية المفروضة عليهم، وإعادة ألقابهم وأسمائهم الإسلامية والاهتمام بالصلوات وإحياء المساجد، ووقعت نقمة الثوار على الكنيسة وممثليها من قسس ورهبان، وعلى موظفي الحكومة الذين أذاقوا المسلمين شر العذاب، فانتفض عليهم الثوار ومزقوهم شر تمزيق، وقتلوا القسس وقضاة محاكم التفتيش، وعمال الحكومة وعمل محمد بن أمية على منع المجاهدين من الانتقام وقتل الأبرياء[٧].

وصلت هذه الأخبار لملك إسبانيا كالصاعقة فجهز جيشين مدعومة بمتطوعين نصارى من الدول المجاورة وذلك للقضاء على المتمردين، وبالمقابل أطلق أيدي النصارى الحاقدين للانتقام من المسلمين الذين تحت أيديهم من النساء والأطفال وكبار السن الذين كانوا بالمدن المختلفة ولا علاقة لهم بالثورة فقتل الكثير من الأبرياء وعذب آخرون ظلماً وعدواناً.

وما إن وصلت الجيوش الإسبانية إلى حدود التماس مع المسلمين إلا ووقعت مواجهات كبيرة، واضطر محمد بن أمية للانسحاب لقلة العدد أمام

---

(٧) انبعاث الإسلام بالأندلس، علي المنتصر الكتاني، ص٩٩.

جحافل جيوش الأسبان النظامية، والتجأ المسلمين للجبال والكهوف ليتحول أسلوبهم في القتال إلى حرب استنزاف.

وفي أثناء ذلك ومع اشتداد نقمة الأسبان على محمد بن أمية تم أسر والده ووالدته وأخيه وشقيقتيه ووالد زوجته وذلك للضغط عليه ومساومته للاستسلام، وقد عرضوا عليه العفو العام لو استسلم هو وجيشه، ولكن محمد بن أمية سطر التاريخ بحروف من ذهب على عظيم تضحياته، ولم يلتفت لأي من حيل النصارى وخداعهم وقرر مواصلة القتال حتى الرمق الأخير.

واستمرت الجيوش الإسبانية تلاحق محمد بن أمية ومن معه على رؤوس الجبال، واستطاع الجيش الإسباني محاصرته ليلاً في أحد البيوت الصغيرة التي كان مختبئاً فيها، واستطاع الإفلات منهم، وأمام هذا اليأس والإحباط الأسباني عمد النصارى على قتل كثير من عائلات المسلمين وسبي أطفالهم ونسائهم وبيعهم كعبيد في الأسواق.

هنا قرر الملك الإسباني فليبي الثاني قيادة الجيش بنفسه للقضاء على هذه الثورة التي عجز عنها قادته، وأرسل للدول النصرانية طالباً منهم المعونة، ووصله أعداد كبيرة من المتطوعين من كافة أقطار أوربا، وذاع صيت الثورة الإسلامية وانضم للمجاهدين عدة الآف من المسلمين قدموا من المغرب والجزائر وتركيا وكانت قيادة المتطوعين تحت إمرة ضابط عثماني اسمه حسين.

وقد أدى وصول الدعم الإسلامي إلى رفع المعنويات وارتفاع وتيرة القتال بين كر وفر، وبعد يأس الأسبان من إخماد هذه الثورة المسلحة ووقف الزحف الإسلامي عمدوا بخبث على إرسال والد وأخ السلطان أمية إلى محاكم

التفتيش لتعذيبهما، وجند الأسبان الخونة لتصفية ابن أمية، وكان رأس الحربية في هذا المخطط الخبيث هو أخو زوجة محمد بن أمية حيث كان بينهما خلاف وعداوة سابقة.

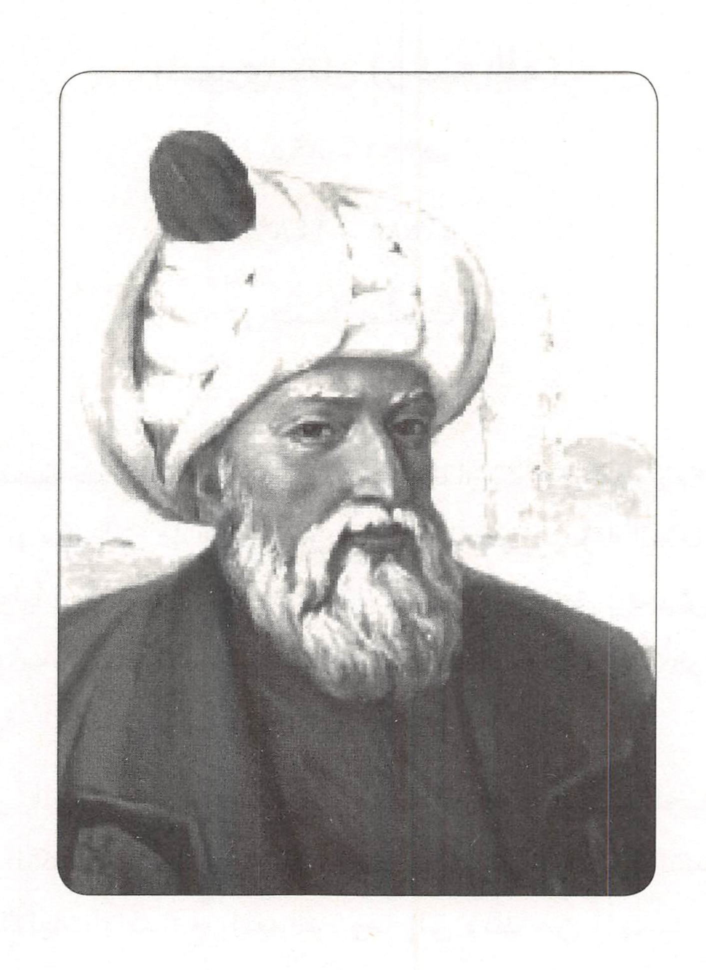
وبدأ هذا المجرم يبث الإشاعات في صفوف المتطوعين أن ابن أمية يريد الاستسلام لينقذ عائلته من يد الأسبان، وقد أثر ذلك على معنويات الثوار، وبعد أن نجحت الإشاعات في هز الثقة بين المجاهدين وقائدهم عمدوا على تزوير رسالة من محمد بن أمية إلى أحد وزرائه العسكريين تأمره بتجريد المقاتلين من السلاح وإعدامهم، فاستنكر الوزير هذه الرسالة، وتوجه الوزير برفقة رجاله لابن أمية، وتم القبض عليه بتهمة الخيانة، وتم إعدامه رغم إنكاره لهذه التهمة وإصراره بأن الرسالة مزورة، ولكن لا راد لأمر الله.

وهكذا استشهد قائد ثورة الأندلس نتيجة الدسائس والغدر على يد أبناء أمته التي ضحى من أجلها بالغالي والنفيس، وشُرد أهله وقُتلت أمه وأخوته وزوجته وسُجن أبوه وأخوه، وما وهن ولا استكان وأجره عند الله[٨].

وبهذه الفاجعة الأليمة انتكست الثورة، وبدأت خطواتها الأولى للاندثار حتى انتهت ولا راد لأمر الله.

* * * *

(٨) انبعاث الإسلام بالأندلس، علي المنتصر الكتاني، ص١٠٩.



المعماري سنان (رحمه الله) ..

٨٩٥ - ٩٩٦هـ

١٤٨٩ - ١٥٨٨م

رجل بأمة

المعماري سنان (رحمه الله)

٨٩٥ - ٩٩٦هـ

١٤٨٩ - ١٥٨٨م

رجـــل بـأمـــة

تبدأ قصة سنان الدين يوسف بن عبدالمنان في أوج قوة وازدهار الدولة العثمانية أو ما يطلق عليه المؤرخون العصر الذهبي للدولة العثمانية، تقول بعض الروايات: إن سنان كان من أصل مسيحي، والتحق بالجيش العثماني في ريع شبابه، وأسلم بعد ذلك، وانتهى به المطاف ليكون أحد أفراد الفرقة الانكشارية[١]، وتحديداً في سلاح المهندسين.

ويوكل بالعادة لسلاح المهندسين مهمة الدعم والإسناد للجيش، كبناء الجسور والثكنات والخنادق وتشييد الحصون وتعبيد الطرق لتسهيل عبور الجنود والآليات والمدافع والمعدات، وما إلى ذلك من المهمات العسكرية المختلفة.

وأثناء حملة السلطان سليمان القانوني على مدينة بغداد أعاق تقدم الجيش العثماني نهر بروت[٢]، واستطاع المعماري سنان تحقيق إنجاز عظيم بعد إجماع كل المهندسين على استحالة بناء الجسر فوق النهر وذلك

(١) الجيش الانكشاري - هي قوات الصفوة والقوة الضاربة في الجيش العثماني، ويوكل إليهم المهمات الصعبة.

(٢) شمال رومانيا قريب من مولدافيا.

لقوة دفع المياه وعمق وضحالة القاع، فقام المعماري سنان بإقناعهم أن ذلك ممكن، فأعطى له السلطان الفرصة التي كانت بمثابة التحدي الكبير له، وبالفعل تم بناء جسر كبير خلال ١٣ يوم فقط، وعبر الجيش الجسر بنجاح بكامل مدافعه وخيوله وعتاده (والجسر قائم حتى هذا اليوم)، فلفت سنان الأنظار إليه بهذا الإنجاز الهندسي، وكان هذا العمل أحد أهم أسباب نجاح تلك الحملة العسكرية.

بعد هذه الواقعة بعام حيث كان المعماري سنان في الخمسين من عمره تمت ترقيته ليصبح بمنصب كبير المهندسين في الدولة العثمانية، وبقي في هذا المنصب ٣٥ عاماً، وبزمن قياسي ترك بصماته الفنية المعمارية في جميع أنحاء الدولة، وبقيت إبداعاته الهندسية شامخة حتى يومنا هذا تثير في النفوس العجب من قدرة الإنسان على الخيال والدقة والإتقان، وإليك سرد سريع لنوع وعدد المباني التي أنشأها هذا الرجل الأعجوبة بهذه الفترة القصيرة.

تقول المصادر التاريخية إن سنان بنى أكثر من ٨٠ جامعاً، وأكثر من ٨٠ مسجداً، و ٥٧ مدرسة، و ٢٢ ضريحاً، و ٧ دور للفقراء، و ١٧ مؤسسة خيرية، و ٣ مستشفيات، و ٧ قناطر ماء، و ٨ جسور، و ٣٥ قصراً، و ٢٠ نزلاً وفندقاً، و ٦ مخازن، و ٤٨ حمام[٣].

ولك أن تتخيل أن كل هذا تم بناءه في ٣٥ سنة فقط!

وما يثير الدهشة أكثر هو أن كل هذه المباني بعد أكثر من ٥٠٠ سنة ما زالت صامدة حتى اليوم، وقاومت كل الزلازل والعوامل الطبيعية الأخرى،

(٣) الدولة العثمانية المجهولة، أحمد آق كوندوز، ص٢٥١.

وهي بغاية الجمال والزخارف والفن والإبداع، فكيف تحقق بناء كل هذا بزمن قياسي وبدون أي رافعات ولا محركات حديثة ؟!

كيف للعقل أن يخطط وكيف لليد البشرية أن تبني طوبه فوق طوبة ولبنة فوق لبنة وحجراً فوق حجراً لتخرج لنا هذا الكم من المباني بهذه الدقة والإتقان في هذا الوقت القصير من الزمن ؟!

كان سنان يشرف بنفسه على بناء كل هذه المباني والمشاريع، ومن الواضح أنه كان يقود مدرسة معمارية، وأنه كان هناك حرفيون بارعون ومعماريون آخرون، ومتدربون أتقنوا أسلوبه وتقنياته[٤].

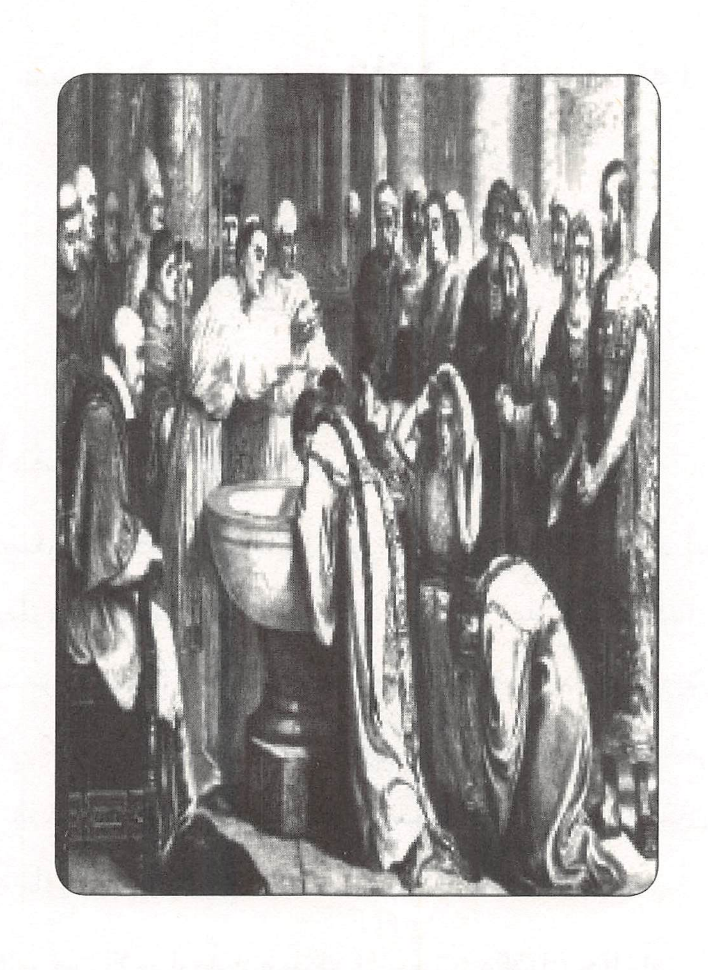
ويقول أستاذ التاريخ العالم الألماني كلوك: إن سنان يتفوق فنياً على مايكل أنجلو صاحب أكبر اسم فني في الحضارة الأوربية.

إنه من الصعب تصديق هذا الكم من العمران خاصة إذا ما وقفت على تلك المباني ورأيتها بنفسك، وهذا ما دفع فريق من الخبراء قبل عشرات السنين من فتح قبر العبقري سنان وإخراج جمجمته لدراستها، وتسبب ذلك بفقدانها، وقد أمر مؤخراً رئيس الوزراء التركي أحمد داود أوغلو فريقاً من الخبراء بالبحث عن جمجمة المعماري سنان، والتي فقدت من متحف علوم الإنسان في العاصمة أنقره عام ١٩٣٥م [٥].

* * * *

(٤) إعادة استكشاف العثمانيين، إلبير أورتايلي، ص ٢٦.

(٥) الموقع الاخباري الرسمي ترك بريس بتاريخ ١٤/٤/٢٠١٦م.



عبدالرفيع بن محمد الأندلسي (رحمه الله) ..

القرن العاشر الهجري

القرن السابع عشر الميلادي

أجره على الله

عبدالرفيع بن محمد الأندلسي (رحمه الله)

القرن العاشر الهجري
القرن السابع عشر الميلادي

أجــره علـى الله

لنقرأ قصة هذا الرجل العظيم كما رواها ابنه محمد ..

كنت صغيراً لا أفقه كثيراً مما يدور حولي، ولكني كنت أجد أبي (رحمه الله) يضطرب ويصفر لونه كلما عدتُ من المدرسة، وكنت كلما أقرأ عليه ما تعلمت من الإنجيل واللغة الأسبانية كان يقوم مسرعاً ويتركني إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار، والتي لم يكن يؤذن لي بالإقتراب منها، ثم يمكث في غرفته ساعات طويلة، وإذا خرج أجده محمر العينين كأنه كان يبكي بكاء طويلاً.

وفي كثير من الأحيان أجده ينظر لي بحزن وكذلك حال أمي التي كانت دوماً دامعة العين، وكنت على صغري أتعجب من حالهما وعاجزاً عن فهم ما يحصل، ثم أجد والدَيَّ باستمرار يتكلمان بلغة غير الإسبانية همساً إذا كنت بعيداً عنهما ولم أكن أفهم منهما شيئاً، فإذا قربت منهم قطعوا حديثهم وحولوا كلامهم للغة الإسبانية.

كنت دوماً أسرح بفكري محاولاً فهم هذه المواقف الغريبة التي كانت تتكرر باستمرار، وأخذت فيني الظنون حتى أني بدأت أشك أني ليس ابنهم،

وكنت أبكي بمرارة لهذا الحال حتى إني لم أعد ألعب كباقي الأطفال، ودائماً أكون معتزلاً وأجلس وحيداً أفكر وأنا شارد الذهن.

ومرت الأيام حتى ولدت أمي وأصبح لي أخ جميل، تفاجأت أن أبي لم يبتهج لهذا المولود الجديد ولا حتى بابتسامة، ثم قام والدي وكله حزن وأسى يجر قدميه إلى الكنيسة ليدعو الأسقف للحضور للبيت ليعُمد المولود الجديد حتى جاء به للدار والحزن مطبق على وجه أمي وأبي، وأنا أنظر إليهما وعاجز عن فهم سر هذا الحزن.

وفي أحد الليالي أثناء عيد الفصح كانت غرناطة والحمراء تحتفل والأضواء في كل مكان والصلبان مضيئة ومعلقة في كل جانب فإذا أبي يدعوني في جوف الليل وكل أهل الدار نيام فقادني صامتاً إلى غرفته التي كان محرمٌ علي الاقتراب منها، فأصابني خوف شديد ولكني تماسكت، فأدخلني الغرفة وأغلق الباب وراح يبحث عن السراج وما إن أشعله إلا وتلفتُ حولي، وإذا هي غرفة صغيرة خالية ليس فيها إلا بساط وكتاب على الرف وسيف معلق بالجدار !

فأجلسني ولبث ينظر إلي بنظرات غريبة أشعرتني بالوحشة، ثم أخذ بيدي وقال: يا بني إنك الآن في العاشرة من عمرك وقد أصبحت رجلاً، فهل تستطيع أن تكتم سري في صدرك وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك وعن الناس أجمعين ؟

يا بني أن هذا السر لو خرج من شفتيك فإنك تعرض أباك لعذاب الجلادين في ديوان التفتيش، فما أن سمعت إسم ديوان التفتيش حتى ارتجفت من مفرق رأسي حتى أخمص قدمي حيث أني كنت أرى يومياً

ضحاياهم في الطرقات... رجال يُصلبون ويُحرقون ونساء يعلقن من شعورهن ويعذبون حتى الموت.

فقال لي أبي: مالك لا تجيب أتستطيع كتمان سري ؟

فقلت: نعم.

قال: تكتمه عن أمك وعن أقرب الناس لك ؟

قلت: نعم.

فاقترب مني وقال بصوت منخفض: أتعرف ما هذا الكتاب الذي على الرف ؟ وأشار إليه.

قلت: لا.

فقال: هذا كتاب الله.

قلت: الإنجيل ؟

فاضطرب وقال: كلا هذا هو القرآن الذي أنزله الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد على خاتم النبيين العربي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم.

فدُهشت لما أسمع، ولا أحس أني فهمت منه شيئاً.

فقال لي: هذا كتاب الإسلام هذا دين الله الحق الذي نزل للناس كافة، فأقام التوحيد وهدم الشرك حتى وصل الإسلام للمشرق والمغرب إلى أن وصلوا إسبانيا، فعدلوا بين الناس وأحسنوا إليهم، ولبثوا فيها ثمانية قرون حتى جعلوها أجمل بلاد الدنيا، يا بني نحن عرب مسلمين، ونحن من بنينا هذه البلاد ونحن من عمر قصورها، واليوم صارت بيد عدونا ونحن الذين

عمرنا هذه المساجد التي حولت لكنائس وعلق عليها الصلبان، وهذا هو السر الذي يجب أن تحفظه بين جنباتك.

يا بني من أربعين سنة خدعونا الأسبان بوعود وعهود بالعدل والحرية، فسلمناهم مفاتيح غرناطة فلما تمكنوا منا خانوا كل المواثيق وأدخلونا للنصرانية بالقوة وسلطوا علينا محاكم التفتيش بما فيها من عذاب وأجبرونا على ترك لغتنا وتغيير أسمائنا لأسماء نصرانية.

يا بني أربعون سنة وأولادنا في الكنائس يتعلمون الإنجيل، ونحن صابرون على هذا العذاب الذي لا تتحمله الجبال ولم نيأس، وما زلنا ننتظر الفرج من الله، وهذا هو السر فاكتمه، واعلم أن حياة أبيك معلقة بين شفتيك، ولست والله أخشى الموت ولكني أحب أن أبقى حياً حتى أعلمك لغتك ودينك وأنقذك من ظلام هذا الكفر.

ثم قال لي: قم إلى فراشك ونجتمع لاحقاً للكلام.

بعد هذه الكلمات شرد بي التفكير حتى أصبحت أتحسس أسوار المدينة وجدران المساجد والقصور، ويحن قلبي للأذان ولشعائر الإسلام، وبدأ أبي يعلمني اللغة العربية كتابة ونطقاً، ويعلمني الوضوء والصلاة حتى أصلي خلفه في هذه الحجرة الضيقة.

وكان والدي باستمرار يقول: إياك أن تبوح بالسر، وكان يرسل أمي لتسألني ماذا يعلمك أبوك ؟

فأقول: لا شيء.

فتقول لي: لا تكتم عن أمك، وأخبرني ما قصتك معه ؟

فأرد عليها: لا شيء لا شيء.

ومضت الأيام بعد الأيام حتى أتقنت اللغة العربية، وفهمت القرآن وعرفت قواعد الدين، وبعدها بزمن عرفني والدي على صديق له وقال لي: هذا هو عونك بعد الله عز وجل، وتستطيع أن تثق به.

ومرت الأيام مسرعة مع ازدياد بطش محاكم التفتيش ببقايا المسلمين والعرب فلا يكاد يمضي يوم إلا ونسمع ونرى مئات المسلمين الذي يسومونهم سوء العذاب، واستمر هذا الحال فترة طويلة إلى أن قال لي أبي ذات يوم: يا بني إني أحس بدنو أجلي وإني أدعو الله أن يجعلني شهيداً على يد هؤلاء المجرمين فأفوز بالجنة فوزاً عظيماً.

وإني مرتاح الآن وقد أديت أمانتك التي كانت ثقيلة على كتفي عشرات السنين يا بني إن أصابني مكروه، فأطع عمك ولا تخالفه في شيء.

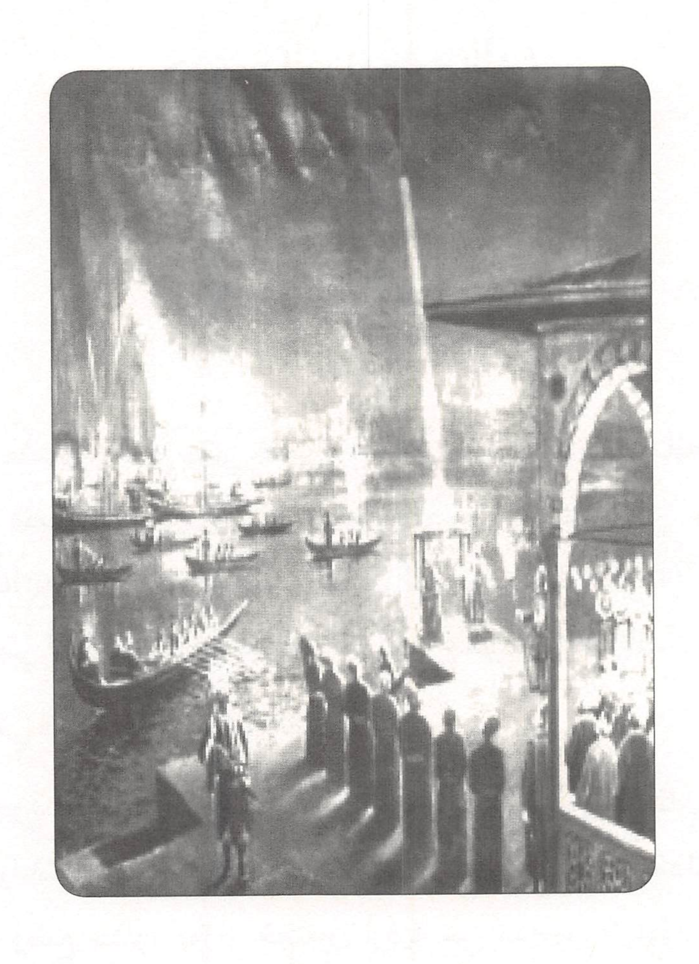
وفي ذات يوم أتاني عمي وأنا بأحد الطرقات، وأمرني أن أذهب معه فوراً، فقلت له: إلى أين ؟ فقال لي: قد يسر الله لنا الفرار للمغرب فلنرحل إلى بلاد المسلمين، فقلت: وأمي وأبي فعنفني بشدة، وقال: اتبعني ولا تسأل فأبوك أوصاك أن لا تعصيني، فأمضيت معه كارهاً حتى خرجنا من المدينة، وما أن ابتعدنا عن المدينة وأظلم علينا الليل إلا وقال لي عمي: يا بني اصبر، فقد كتب الله لوالديك السعادة، وماتوا شهداء على يد محاكم التفتيش، فبكيت كثيراً، وواصلت معه المسير حتى وصلنا للمغرب بسلام.

فرحم الله هذا الأب العظيم، وهذه الأم العظيمة على ما لقوا من فتن وابتلاء وصبروا طاعةً لله ولرسوله.

وما أن كبر هذا الطفل الهارب من الأندلس إلا وأصبح العالم الإمام المصنف عالم بلاد المغرب محمد بن عبدالسلام الأندلسي.

* * * *

▪ المصدر - قصص التاريخ، علي الطنطاوي، ص١٣٣-١٣٩.



حسن جلبي (رحمه الله) ..

١٠٤٢هـ

١٦٣٣م

مؤسس علم الصواريخ

حسن جلبي (رحمه الله)

١٠٤٢هـ

١٦٣٣م

مؤسس علم الصواريخ

عالم عثماني مسلم سني حنفي ذو خيال واسع، وسابق لزمانه وعصره، ويعود له فضل تأسيس أول لبنة لعلم الصواريخ في العالم، وفي مجلة (weekly world news) أثبت العالم النرويجي (roffavik) من خلال بحثه العلمي أن أول صاروخ فضائي قد اخترع من قبل الأتراك.

فما هي قصة هذه العقلية الفذة؟

بالرجوع لكتاب (سياحت نامة) نعلم أن حسن جلبي قام بعد عدة دراسات واختراعات في ابتكار فكرة لا تخطر على بال بشر في ذلك الزمان حيث أنه وضع حشوة بوزن خمسين أوقية من معجون البارود في قذيفة ذات سبع أذرع، ثم جعل من هذه القذيفة دافعة له، وأشعل الفتيل وأنطلق كالصاروخ في السماء ونجح في الطيران بها قرابة ثلاثمائة متر للأعلى، وعندما انتهى البارود، فرد ذراعيه التي ركب عليها أجنحة صنعها بنفسه من ريش النسر، وحلق بالسماء كالطيور لحين نزل بسلام في البحر.

واختار هذا العالم الفذ توقيت التجربة التاريخية في يوم حفل ميلاد الأميرة قايا بنت السلطان مراد الرابع مستغلاً وجود السلطان وكبار رجال الدولة وجمع غفير من الناس، ليشاهدوا هذا المنظر المهيب.

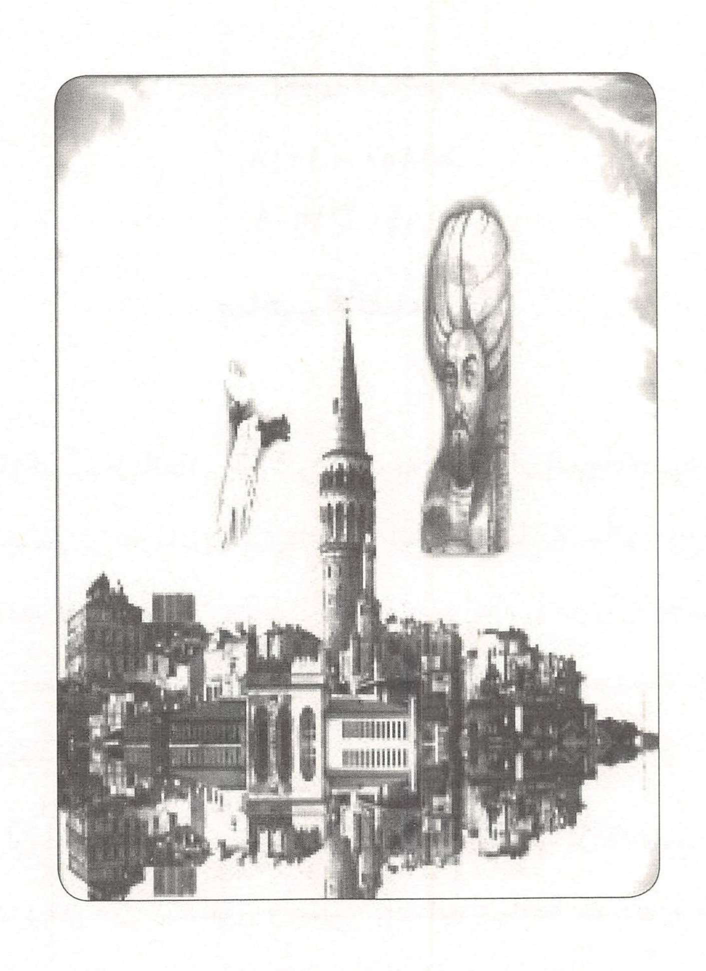
وتذكر المصادر التاريخية أن العالم حسن قبل إشعال الفتيل خاطب السلطان مراد، وقال له: يا مولاي استودعك الله أنا ذاهب لنبينا عيسى عليه السلام، ثم انطلق وطار بأعلى السماء، وكان معه قذائف ملونة بيده، وما أن ارتفع في السماء حتى أطلقها ليشعل سماء العاصمة بألوان مختلفة أدهشت الجميع، وما إن نزل سالماً في البحر حتى توجه للسلطان مراد، وقال له مازحاً: يا مولاي إن عيسى عليه السلام يبلغك السلام.

فأمر له السلطان بكيس من الذهب كما أمر له براتب قدره سبعون أقجة[1].

* * * *

(١) الأقجة عملة عثمانية، وكلمة أقجة باللغة العثمانية تعني البيضاء المشرقة، وكانت تصك من الفضة.

- الدولة العثمانية المجهولة، أحمد آق كوندوز، ص٣٠٥.



أحمد جلبي (رحمه الله) ..

١٠١٨ - ١١٥٠هـ

١٦٠٩ - ١٦٤٠م

صاحب الألف معرفة

أحمد جلبي (رحمه الله)

١٠١٨ - ١١٥٠هـ

١٦٠٩ - ١٦٤٠م

صاحب الألف معرفة

من المؤكد أن كل العالم من شرقه لغربه يعرف العالم والمخترع الإسلامي الشهير عباس بن فرناس الذي اخترع الساعة المائية، والزجاج الشفاف، وعدسات تصحيح البصر، وقلم الحبر، واختراعات أخرى في رصد الأفلاك والأجرام السماوية، إلا أن الشهرة الأوسع لابن فرناس تحققت في محاولته للطيران في ذلك العصر.

رغم أن المحاولة نجحت في بدايتها إلا أنها كادت أن تنهي حياته حين سقط بعد زمن من التحليق، وأصيب بإصابات بالغة في ظهره شفي منها لاحقاً، ورغم ذلك تعتبر هذه التجربة الرائدة إنجازاً علمياً مهماً يحسب للإرث البشري ككل.

هذه مقدمة مختصرة عن عباس بن فرناس فيا ترى من هو أحمد جلبي ؟

أحمد جلبي مخترع عظيم لم يلقى نصيباً من الشهرة ولا تكاد تجد له ذكر، كان في عصر السلطان العثماني مراد الرابع، وهو عالم عثماني يلقبونه

(هازرفن)[1] كان شغوفاً بالطيران، وعكف على الدراسة والتجارب لتحقيق هذا الحلم الذي يعتبر في ذلك الزمن من الخيالات المعجزة، وبالفعل استطاع أحمد جلبي القيام بتسع محاولات ناجحة للطيران لمسافات قصيرة في ميدان الخيول في وسط القسطنطينية، وبعد اكتمال التجارب الأولية ونجاحها بدأ يعد العدة للطيران الكبير، وهو القفز من فوق برج غلطة[2] في القسم الأوربي من إسطنبول على أن يطير بعد ذلك منها إلى القسم الأسيوي عابراً فوق مضيق بحر البوسفور وهي مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات.

وفي ذلك اليوم المشهود بعد دراسته لقوة واتجاه الرياح قرر أحمد جلبي خوض مغامرته التاريخية، وتجمع أهالي إسطنبول على الساحل، وازدحم الناس زحاماً شديداً لم تشهد مثله إسطنبول من قبل، وكان السلطان مراد الرابع ومعه وزرائه يراقبون المشهد من شرفة القصر، والجميع شاخص بصره نحو أعلى البرج يراقبون اللحظات الحاسمة، وإذا بأحمد جلبي يسمي بالله ويقفز، ثم فرد أجنحته التي صنعها، ولفها حول جسمه، وإذا بالهواء يرفعه ويجعله يطير كالصقر وسط ذهول الجميع إلى أن نزل بسلام في القسم الأسيوي كما خطط تماماً بدون أي خطأ، وبهذا الإنجاز سُرّ السلطان مراد، وأمر له بكيس من الذهب، وبذلك يكون العالم المسلم أحمد جلبي أول إنسان يستطيع الطيران برحلة ناجحة عبر التاريخ، وهو بذلك يصنف بأنه رائد الطيران الشراعي في العالم.

(١) هازرفن تعني صاحب الألف معرفة وفن.

(٢) ارتفاع البرج قرابة ٦٣ متر، وهو في القسم الأوربي.

ومن المفارقات أن السلطان مراد الرابع بعد هذا الإنجاز العظيم وبعد أن كافأه بالذهب، أمر بنفي العالم أحمد جلبي للجزائر مبرراً ذلك بأنه لا يجوز بقاء مثل هذا الشخص في العاصمة[٣].

فمن منا سمع بهذا العالم الفذ من قبل !؟

* * * *

(٣) ذهول الناس والخليفة جعلهم متخوفين من هذا الشخص، فالذي يستطيع أن يطير يستطيع أن يفعل ما هو أكبر !

- الدولة العثمانية المجهولة، أحمد آق كوندوز، ص٣٠٤.



أحمد باشا كوبريلي (رحمه الله) ..

١٠٤٤ - ١٠٨٦هـ

١٦٣٥ - ١٦٧٦م

جيش تحت الأرض

أحمد باشا كوبريلي (رحمه الله)

١٠٤٤ - ١٠٨٦هـ

١٦٣٥ - ١٦٧٦م

جيش تحت الأرض

في عام ١٦٤٨م تمرد الجيش الانكشاري على السلطان إبراهيم بثورة عارمة هزت أرجاء عاصمة الخلافة، وانتهى التمرد بقتل السلطان خنقاً وتولية ابنه محمد الرابع سلطاناً على البلاد، وكان في السابعة من عمره، ونتيجة لصغر سنه تولت جدته السلطانة كوسم نيابة السلطنة، واستمر هذا الحال ثلاث سنوات ساءت فيها أحوال الدولة وتدهورت كثيراً.

وبعد وفاة الجدة كوسم كان ما زال السلطان صغيراً في السن، فتولت أمه السلطانة خديجة النيابة، وكانت امرأة ذكية راجحة العقل شغلت نفسها في البحث عن الرجال الأكفاء لإنقاذ الدولة من التدهور الحاصل والنهوض بها من جديد لسابق عهدها، وبعد البحث وجدت السلطانة الأم ضالتها في محمد باشا كوبريلي، وهو ألباني الأصل ورجل دولة بكل المقاييس، وعرضت عليه السلطانة الأم منصب الوزير الأول، واشترط محمد باشا لقبول ذلك أن تكون له صلاحيات واسعة، ليتمكن من إرجاع هيبة الدولة المفقودة، وهذه هي المرة الأولى التي يضع فيها وزيراً شروط مسبقة لتولى المنصب.

تم الاتفاق بينهما وقُلد محمد باشا كوبريلي منصب الوزير الأعظم أو الوزير الأول، وحين بلغ السلطان محمد الرابع عمر خمسة عشر عاماً تولى السلطان بنفسه الحكم، وبجانبه ذراعه الأيمن الوزير الأعظم محمد باشا كوبريلي، فانتظمت أمور الدولة وتحسنت الأوضاع، وتحقق بزمن قصير عدد من الإنجازات الداخلية والخارجية للدولة، وبعد خمس سنوات من ذلك حضرت الوزير الأعظم الشيخ ذا الثمانين عاماً الوفاة، وطلب منه السلطان محمد ترشيح شخص كفء لهذا المنصب الحساس، فقال له محمد باشا: إذا أردت أن يستتب الأمر فولي ابني أحمد باشا[1].

واخذ السلطان بنصيحة الأب وتولى الابن أحمد المنصب وهو بعمر ستة وعشرين عاماً، وأصبح وزيراً أعظم للدولة العثمانية، وكان الوزير الجديد ذكياً موهوباً على قدر عال من التعليم والمهارات العسكرية حيث رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيش لقتال النمسا، وتمكن عام ١٦٥٤م من فتح أعظم قلعة في النمسا، وهي قلعة نوهزل شرق فينا[2]، ومن أبرز ما قام به هذا البطل الشجاع ما حصل في معركة جزيرة كريت[3].

كان يقف خلف نصرة الجزيرة النصرانية وحدات فرنسية وإنجليزية وإيطالية وألمانية وقد أخذ الأمر شكل مسألة كرامة بالنسبة للمسيحيين تجاه الإسلام[4].

---

(١) بصمات خالدة في التاريخ العثماني - جان ألبجوونج ص١٢٢، دار النيل.

(٢) الدولة العثمانية، الدكتور علي الصلابي ص٣٣٥، دار المعرفة.

(٣) جزيرة كريت الآن تابعة لليونان، وفيها قلعة كاندية، وحصلت حولها أشد المعارك دموية.

(٤) موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثاني ص٥١٠، الدار العربية للموسوعات.

جهز أحمد باشا جيشه في ستة أشهر، ثم زحف بجيش كبير لإخضاع كريت وإعادتها للحكم العثماني، وبعد حصارها لستة أشهر متواصلة استشهد في المناوشات اليومية لذلك الحصار ٨٠٠٠ جندي عثماني، وأمطرت القلعة بـ ٤٠٠ قذيفة يومياً، ومع ذلك صمدت القلعة المحصنة.

ودخل عليهم الشتاء القارص وأمام إصرار أحمد باشا على النصر بنى الجنود العثمانيون غرفاً من الطوب اللبن في طرقات الأنفاق، وبعضها في السواتر، وأقاموا سوقاً في تلك الطرقات فكأن معسكر الجيش تحول إلى مدينة تحت الأرض(٥).

والأغرب من ذلك هو أن والدة أحمد باشا واسمها عائشة خاتون وهي مرأة مسنة كبيرة في العمر رفضت الراحة والأمن، ورافقت ابنها في هذه الحرب، فكانت معهم في أرض المعركة تسكن داخل الخنادق، وقد كانت سيدة لا نظير لها في العفة والتعبد، وكانت تقوم الليل كله تدعو للجيش بالنصر.

ثم بعد انتهاء الشتاء بدأ الحرب والحصار من جديد، واستمر هذا الحال سنتين متواصلة من القتال والحصار فقد كان الجيش العثماني مستبسلاً ذو إرادة تكسر الحديد لا يعرف إلا النصر أو الشهادة.

وخلال المعارك قتل العثمانيون عدداً كبيراً من أمراء وأشراف الدول الأوربية كانوا قد التحقوا بالجيوش المدافعة عن سقوط القلعة.

---

(٥) بصمات خالدة في التاريخ العثماني - جان ألبجوونج ص١٢٨، دار النيل.

وفي يوم ٢٩ يونيو عام ١٦٦٩م خرج الإنجليز من القلعة رافعين العلم الأبيض، وأفادوا بأن الدوق بيفورت قد قُتل، وهو ابن أخ الملك ويطلبون من العثمانيين تسليمهم الجثة لإرسالها لبريطانيا، وأمر أحمد باشا بالبحث عنه بين الآف القتلى، ولم يعثر على جثته(٦).

كانت الجيوش المدافعة عن القلعة بقيادة أحد كبار العسكريين في عصره وهو فرانسيسكو موروسيني، وأمام هذا الهجوم العثماني المتواصل جمع فرانسيسكو قيادات جيشه في مجلس عسكري، وأفاد بأنهم يملكون القسم السطحي للقلعة فقط، وأن العثمانيين أسسوا مدينة تحت القلعة وشقوا لها شوارع وأزقة، وأنهم يفجرون الأنفاق عدة مرات يومياً، وأفهمهم بأن ليس بالإمكان الدفاع عن هذه القلعة أكثر من ذلك(٧).

وأثناء المفاوضات مع العثمانيين لوقف هذا النزيف الكبير تم عرض الجزية على العثمانيين، وعرضت أموال ضخمة مقابل الانسحاب عن قلعة كانديه، لأنها بمنزلة كرامة للعالم المسيحي، فأجابهم أحمد باشا غاضباً: لم نأت هنا للتجارة فالحمد لله دولتنا في غنى، ولا نحتاج إلى المال، ولن نساوم على كانديه بأي ثمن أبداً، ثم قال لهم: إن فتح القلعة للعالم الإسلامي أيضا مسألة كرامة(٨).

---

(٦) موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثاني ص٥١١-٥١٢، الدار العربية للموسوعات.

(٧) موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثاني ص٥١٢. الدار العربية للموسوعات.

(٨) بصمات خالدة في التاريخ العثماني - جان ألبجوونج ص١٣١، دار النيل.

في هذه الأثناء جمع الفرنسيين والمالطيين جنودهم الأحياء والجرحى، وغادروا القلعة، ولم يكن بابا أوربا راضياً عن هذا الهروب، وانزعج جداً ملك فرنسا لويس الرابع عشر جراء ذلك الانسحاب.

وبعد مفاوضات شاقة تم استسلام القلعة الحصينة، ووقعت معاهدة تنص على أن قلعة كانديه بما فيها من سلاح ومدافع وذخيرة أصبحت أراضي عثمانية.

وانتهت بذلك أحد أشرس الحروب التي عرفها التاريخ الإسلامي بانتصار عثماني تحقق في سنتين وأربعة أشهر من الحرب والحصار المتواصل استشهد خلالها ثلاثون ألف مقاتل من الجيش العثماني.

وفي الساعة التاسعة صباحاً من يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٦٦٩م قدم البندقيون إلى العثمانيين على طبق من فضة ٩٣ مفتاحاً للقلعة، وبدأ بعدها دخول الوحدات العثمانية للقلعة، وقام بعدها كبار العسكريين للجيش العثماني بزيارة مجاملة للأشراف المقيمين في القلعة، وهم نخبة من الإيطاليين والفرنسيين والألمان والأسبان والإنجليز، وقدموا لهم الهدايا الثمينة وأنيرت القلعة سبعة أيام، وأطلقت القذائف الضوئية يومياً لمدة سبعة أيام احتفالاً بالنصر.

وبعد نشوة الانتصار ذهب أحمد كوبريلي إلى والدته المسنة عائشة خاتون، وقبل يدها وقالت له: الآن أستطيع أن أغادر وأذهب للحج وأنا مرتاحة، وبقي أحمد باشا كوبريلي في الجزيرة لإصلاح الأوضاع وترميم ما خلفته الحرب ليرجع بعد ذلك لوطنه بعد غياب متواصل لمدة ثلاث سنوات ونصف من هذه الحرب.

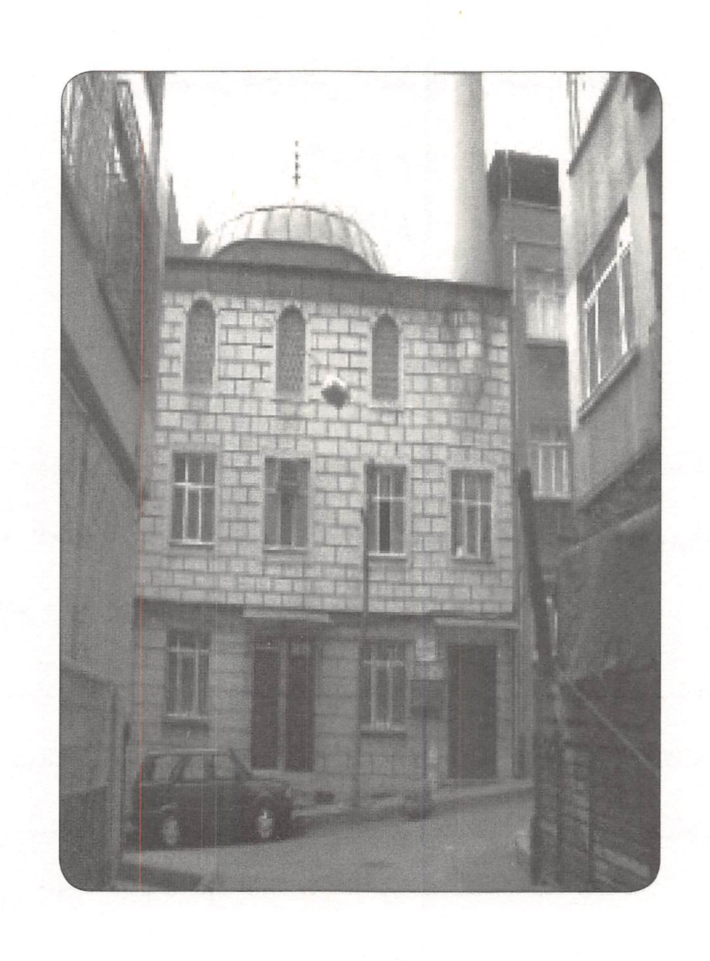
لم يسبق حتى ذلك اليوم وفي أي قطر من أقطار العالم أن يكرس جهد لقلعة واحدة كما كرس لكانديه، ولم يسبق أن يصرف على أي موقع مستحكم هذا القدر من الأنفس والأموال(٩).

ويذكر المؤرخون أن أحمد باشا رجل من طراز نادر، وكتب عنه المؤرخ النمساوي الشهير (هامر) فقال: كان يصل إلى الحقيقة من أقصر الطرق، ويكره لغو الحديث، لذا كان متحفظاً في قوله صموتاً لا يتكلم من دون تفكير، وكان عالماً منتسباً إلى زمرة العلماء.

وصلت الدولة العثمانية في عهده إلى مجدها وعظمتها مجدداً، وتوفي عن عمر واحد وأربعين عاماً بعد ما أنهكه المرض، وكان دوماً يردد ويقول: الموت على الفراش مذلة.

* * * *

(٩) موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثاني ص٥١٤، الدار العربية للموسوعات.



خير الدين كجحي أفندي (رحمه الله) ..

١١٦٣هـ

١٧٥٠م

كأنني أكلت

خير الدين كججي أفندي (رحمه الله)

١١٦٣هـ

١٧٥٠م

كأنني أكلت

عظمة هذا الرجل ليست بسبب فروسيته ولا بطولاته العسكرية ولا في اكتشافاته العلمية... قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه»[١].

لو زرت يوماً مدينة إسطنبول وتجولت في منطقة الفاتح ستجد في أحد أزقتها الضيقة جامعاً صغير اسمه باللغة التركية (sanki yedim - صانكي يدم) وترجمتها العربية هي (كأنني أكلت)... فهل يعقل أن مسجد أو جامع يكون اسمه كأنني أكلت ؟!

تبدأ قصة خير الدين كججي أفندي بأنه كان رجلاً فقيراً إذا وجد طعاماً للغداء ربما لا يجد لعشائه شيء، ورغم فقره وحاجته كان له إراده صلبة لا تعرف المستحيل، وله أمنية عظيمة يتمنى تحقيقها، وهي أن يبني بيتاً لله ليبقى له ثوابه بعد موته تصديقاً لحديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث.. صدقة

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الضعفاء والخاملين، رقم (٢٦٢٢).

جارية»[٢]، فعزم خير الدين كججي أفندي على تحقيق هذا الهدف الغالي مستعيناً بالله ثم بهمة عالية علوّ الجبال الشامخات.

فجعل له صندوقاً صغيراً يجمع فيه ما يكسبه من عرق جبينه بعمله اليومي في السوق، وكان كلما جاع وأراد الأكل يحدث نفسه ويقول.. كأنني أكلت ..

ثم يأخذ هذه الدراهم القليلة ويضعها في الصندوق بدلاً من وضعها في أصناف الطعام.. وكان يمر عليه أثناء عمله في السوق كل مغريات الحلوى والفواكه ويرى كل ما لذ وطاب من الأطعمة ويشم روائح الشواء التي يسيل لها لعاب الجائع، وكلما ضعفت نفسه واشتهت ردد عليها وكرر.. كأنني أكلت ..

ثم يعاود وضع ذلك المال اليسير في صندوقه، وعلى هذا الحال حرم نفسه من كل ملذات الطعام والشراب وأصبح لا يأكل إلا ما يقيم عوده فقط ولا يأكل إلا الضروري الذي يبقيه على قيد الحياة، ومرت عشرات السنين وهو قائم على هذا الحال بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل.

حتى استطاع أن يجمع بكد يمينه وبهذه الدراهم القليلة اليومية قيمة بناء الجامع، وحقق حلمه ومراده وضحى بالقليل الزائل من أجل الكثير الدائم، فيا لها من همه وطوبى له الأجر والثواب.

---

(٢) صحيح مسلم، باب الوصية.

- المصدر - جوامع إسطنبول، تحسين أوز، ج١ ص١١٩، روائع التاريخ العثماني، اورخان محمد علي، ص١٠٠.

ولما كان أهل الحي يعرفونه عبر السنين ويعرفون قصته قرروا تسمية هذا المسجد الصغير بجامع (كأنني أكلت) تخليداً لقصة هذا الرجل العظيم ولما فيها من المواعظ والعبر.

بقدر الكدِّ تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

ومن رام العلا من غير كد ... أضاع العمر في طلب المحال

تروم العز ثم تنام ليلاً ... يخوض البحر من طلب اللآلي

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

* * * *



لالة فاطمة نسومر (رحمها الله) ..

١٢٤٥ - ١٢٧٩هـ

١٨٣٠ - ١٨٦٣م

قاهرة الاستعمار

لالة فاطمة نسومر (رحمها الله)

١٢٤٥ - ١٢٧٩هـ

١٨٣٠ - ١٨٦٣م

قاهرة الاستعمار

اسمها الحقيقي هو فاطمة سيد أحمد وكلمة لالة هي لفظ توقير أمازيغي يعني «السيدة»، وتُعد فاطمة من أبرز وجوه المقاومة الشعبية الجزائرية للغزو الفرنسي.

نشأت فاطمة في وسط أسرة متدينة من بين أربع أخوة، وفي السادسة عشرة من عمرها قرر أبوها تزويجها من شاب من بني أخوالها، لكنها رفضت الزواج منه لتستكمل علومها الدينية. وعندما زفوها إليه تظاهرت بالمرض، فأعادها إلى منزل والدها، ورفض أن يطلقها فبقيت في عصمته طوال حياتها، فآثرت حياة التنسك والانقطاع والتفرغ للعبادة، كما تفقهت في علوم الدين.

وبعد وفاة أبيها وجدت فاطمة نفسها وحيدة منعزلة عن الناس، فتركت مسقط رأسها، وتوجهت إلى قرية سومر حيث يقيم أخوها الأكبر سي الطاهر، تأثرت لالة فاطمة بأخيها الذي ألمّ بمختلف العلوم الدينية والدنيوية، وأخذت عنه مختلف العلوم إلى أن ذاع صيتها في جميع أنحاء القبائل.

وحين بدأ الغزو الفرنسي للجزائر بادرت فاطمة بالاتصال بأحد زعماء المقاومة الجزائرية واسمه محمد بن عبدالله، وانخرطت في صفوف

المقاومة ضد المستعمر الفرنسي، ومن أشهر المعارك التي شاركت فيها كانت في منطقة واضية[1]، حيث احتشد الجيش الفرنسي، وعاونهم الخائن الباشا آغه الجودي، وتلقى الجيش الفرنسي هزيمة نكراء، وقد قتلت فاطمة الخائن آغه الجودي بيدها، كما أنها أنقذت في المعركة حياة القائد محمد ابن عبدالله من موت محقق إثر إصابته، وقد طلبها القائد محمد بعد ذلك للزواج، فلم تستطع لكون زوجها الأول معلقاً لعصمتها.

اشتركت فاطمة في معركة ١٨ يوليو عام ١٨٥٤م التي انهزم فيها الفرنسيون وانسحبوا مخلفين أكثر من ٨٠٠ قتيل بينهم ٢٥ ضابطاً، وكان أخشى ما يخشاه القادة الفرنسيون هو تأثير هذه الهزائم التي تقودها امرأة جزائرية على معنويات الجيش الفرنسي، ثم جند الجنرال الفرنسي روندون سنة ١٨٥٧م جيشاً قوامه ٤٥ ألف رجل بقيادته شخصياً، واتجه به صوب قرية آيت تسورغ حيث تتمركز قوات فاطمة نسومر المتكونة من جيش من المتطوعين قوامه سبعة آلاف رجل بأسلحة بدائية، واحتدم القتال بين الطرفين، واتبع الفرنسيون أسلوب الإبادة بقتل كل أفراد العائلات الجزائرية دون تمييز إلى أن تم أسرها في عام ١٨٥٧م.

وتم سجنها تحت حراسة مشددة، وقد توفيت في سبتمبر ١٨٦٣م عن عمر ٣٣ سنة على إثر مرض عُضال تسبب في شللها، ويقال: إنها ماتت مسمومة وتم دفنها في مقبرة سيدي عبدالله قبل أن يتم نقل رفاتها إلى مربع الشهداء بمقبرة العالية سنة ١٩٩٥م والمكان حالياً هو متحف سُمي على اسمها عام ٢٠٠٩م.

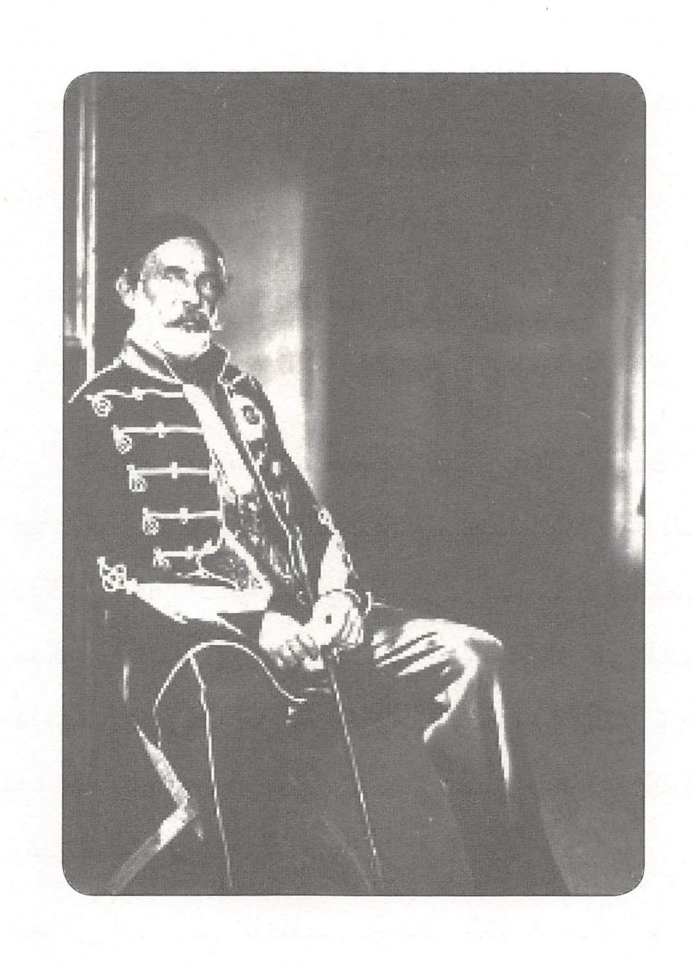
---

(١) واضية إحدى دوائر ولاية تيزي وزو في شمال الجزائر.

- قصة الاسلام، إشراف الدكتور راغب السرجاني.

وقد كانت ترفض (رحمها الله) كل الألقاب على نفسها وتفضل لقب « خولة » نسبة إلى خولة بنت الأزور البطلة المشهورة التي أبهرت الصحابة وخالد بن الوليد في قتالها للروم.

* * * *



إكرام عمر باشا (رحمه الله) ..

١٢٢١ - ١٢٨٨هـ

١٨٠٦ - ١٨٧١م

قاهر القيصر الروسي

إكرام عمر باشا (رحمه الله)

١٢٢١ - ١٢٨٨هـ

١٨٠٦ - ١٨٧١م

قاهر القيصر الروسي

السردار[١] إكرام عمر باشا شخصية عسكرية فذة غيبها التاريخ، ولا تكاد تجد لها ذكراً في المصادر العربية، ولد هذا البطل في النمسا وأبوه صربي أرثدوكسي وكان اسمه ميهايلو لاتاس، وعندما كبر التحق بالجيش النمساوي مبكراً في العمر وما إن وصل عمره ١٧ عاماً حتى هدى الله قلبه للإسلام، فاضطر للهروب للدولة العثمانية وتحديداً اختار وجهته لتكون إلى البوسنة والهرسك، وما أن وصل لها حتى أعلن إسلامه والتحق بالجيش العثماني، وغير اسمه إلى عمر.

وكان الجيش العثماني النظامي في هذه الفترة جيشاً جديداً نسبياً، وذلك بعد إلغاء الجيش الانكشاري، وأثبت عمر باشا سريعاً كفاءة عسكرية وانضباطية كبيرة، وترقى بسرعة وساهم بشكل مباشر في إخماد كثير من الثورات الانفصالية في تلك الفترة في الشام وألبانيا وغيرها.

ثم تولى بعد ذلك منصب الحاكم في لبنان، وفي هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية تعيش حالة توتر عسكري مع الجارة الكبيرة روسيا جراء أطماع

---

(١) كلمة أصلها فارسي، وتعني رئيس الجيش.

روسيا المتتالية واعتداءاتها المتكررة على منطقة القرم، وجراء ذلك أعلنت الدولة العثمانية تحالفات مع عدد من الدول وشنت حرباً كبيرة وشاملة على الروس واشتهرت تاريخياً باسم حرب القرم.

سلمت قيادة الجيوش لعمر باشا وبعد قتال شرس في معركة التونيتا عام ١٨٥٣م تم سحق الجيش الروسي، واستطاع القائد العثماني عمر باشا أن يلحق هزيمة كبيرة بالروس على نهر الدانوب، وأن يدخل رومانيا[٢] وتم إخضاع حصون كثيرة وذلك أمام هروب الجيش الروسي، ونجح الجيش العثماني في دخول بخارست، وتم طرد الروس نهائياً من رومينيا، وكانت نتائج هذه الحرب على القيصر الروسي كارثية حيث قال كلمته الشهيرة: (أشعر أن يد السلطان العثماني على خدي)[٣].

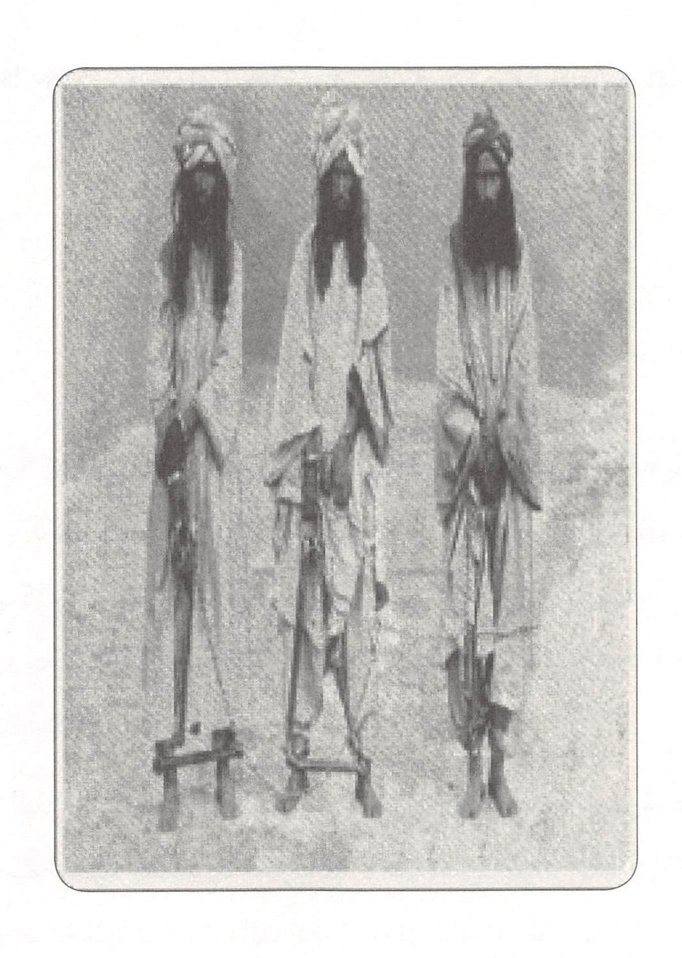
وبعدها بزمن وجيز مات قيصر روسيا من شدة الهم والحزن على ما لحقه من هزائم سطرها التاريخ بقيادة عمر باشا.

* * * *

---

(٢) أطلس تاريخ الدولة العثمانية، سامي المغلوث، ص٥٨٥.

(٣) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثالث ص٥٠، الدار العربية للموسوعات.



كالا خان ، وخالمب خان ، ورحيم علي (رحمه الله) ..

١٣٠٨هـ

١٨٩١م

حقيقية ليست أساطير

كالا خان، وجالمب خان، ورحيم علي (رحمهم الله)

١٣٠٨هـ

١٨٩١م

حقيقية ليست أساطير

في عام ١٨٣٩م احتلت القوات البريطانية الاستعمارية دولة بلوشيستان، ونشأ جراء ذلك وتحديداً في عام ١٨٨٧م مقاومة وطنية ضد المستعمر البريطاني كانت حصيلتها عدداً كبيراً من العمليات النوعية التي كبدت القوات البريطانية خسائر كبيرة حيث وصل عدد قتلى أحد العمليات ٨٣ جندياً بريطانياً في نهار واحد.

كانت القوات الوطنية المقاومة متمركزة بمنطقة وعرة على سفوح أعلى جبل في المدينة لتسديد ضرباتها واقتناص أفراد القوات البريطانية، وتسببت هذه العمليات في إرباك القوات المستعمرة التي بالتالي سخرت كل إمكانياتها في إعداد التقارير العسكرية والاستخباراتية التي كان مفادها بأن قوات المقاومة التي تتمركز في أعلى الجبل عددها كبير جداً، ولا يمكن للجيش البريطاني الاقتحام، لأنه لو فعل ذلك ستكون النتيجة كارثية عليهم، لذا فالحل الأمثل هو حصار الجبل وقطع الإمدادات عن الجيش المقاوم، وفعلاً صدرت الأوامر العسكرية بإحكام الحصار على الجبل من كل الاتجاهات إلا أن العمليات النوعية واقتناص أفراد الجيش البريطاني لم تتوقف، واستمر الحال كذلك أربع سنوات متتالية حتى إن الجيش

البريطاني لجأ للحلول السلمية في محاولة منه لخطب ود جيش المقاومة، فاتخذت القيادة العسكرية البريطانية إجراءات من شأنها تخفيف التوتر، فأزالوا الضرائب عن القرى المتاخمة للجبل، وتم إرسال رسائل متعددة للتفاوض لإنهاء القتال الدائر حول الجبل من سنين.

إلا أن قوات المقاومة لم تلتفت لشيء من ذلك واستمر النزيف البريطاني بشكل شبه يومي حتى بدأت وتيرة المقاومة تقل مما دل على نفاذ السلاح والذخيرة عند المقاومة المحاصرة في أعلى الجبل.

هنا تم إصدار الأوامر العسكرية البريطانية باقتحام الجبل، وتحركت فرق كاملة يتبعها الإسناد بكافة القطاعات العسكرية المتاحة، وبدأت عملية عسكرية ضخمة من نوعها لآلاف الأفراد والضباط، وما أن وصلت القوات البريطانية إلى أعلى الجبل حتى اكتشفت أن الجيش المقاوم الذي كبدهم كل هذه الخسائر على مدى أربع سنوات، والذي أهلك القوات البريطانية ما هم إلا ثلاثة مجاهدين فقط!

وتم أسر الأبطال الثلاثة وتبين لهم بعد التحقيق أنهم من أهل السنة، ويعيشون من أربع سنوات فوق الجبل، وقد سخروا حياتهم للمقاومة وطرد المحتل، فتم بعد ذلك توثيق أيديهم بالسلاسل والتقاط بعض الصور لهم، ومن ثم تنفيذ حكم الإعدام فيهم، وهكذا تطوى صفحة شرف وبطولة لهؤلاء الأبطال رحمهم الله.

* * * *

▪ المصدر - المتحف البريطاني www.britishmuseum.org.



الجنرال محمد باشا ، وابنه ، وحفيده (رحمه الله) ..

١٣٢٩هـ

١٩١١م

شربوا البطولة كابراً عن كابر

الجنرال محمد باشا، وابنه، وحفيده (رحمهم الله)

١٣٢٩هـ

١٩١١م

شربوا البطولة كابراً عن كابر

تبدأ قصتنا من بعد عزل السلطان العثماني عبدالحميد الثاني سنة ١٩٥٩م حين كانت الدولة العثمانية تحتضر ومشلولة الأركان، وأصبحت غير قادرة على حماية نفسها من الخطر الذي أحاط بها من كل جانب، وفي هذه الظروف الصعبة هجم الجيش الإيطالي الاستعماري على ليبيا من غير سابق إنذار، وأمام هذا الوضع ما كان بإمكان الدولة العثمانية في حينها سوى فتح المجال للمتطوعين لنصرة إخوانهم المسلمين في ليبيا.

وهنا تقدم للتطوع والجهاد ثلاثة مجاهدين قصتهم عجب من العجب وهم الميرلوا[١] محمد باشا، وابنه الميرآلاي[٢] أحمد علاء الدين، وحفيده الجندي محمد.

تطوع الثلاثة الأبطال للذب عن الإسلام والمسلمين، وتركوا أهلهم وأوطانهم، وشدوا الرحال من تركيا إلى ليبيا، وبعد مشقة الطريق وعناء السفر وصلوا لوجهتهم، وفور وصولهم نسقوا مع زعماء القبائل والعشائر

---

(١) ميرلوا رتبة عسكرية عثمانية، وتعني لواء.

(٢) الميرآلاي رتبة عسكرية عثمانية، وتعني عميد.

الليبية، واجتمعوا سراً بأشراف وأعيان البلد، واتفقوا معهم على أن يشرف أبطال قصتنا الثلاثة بما لديهم من خبرات عسكرية على تدريب البدو والمواطنين على حمل السلاح لمواجهة الجيش الإيطالي المحتل.

وبعد حشد القوى وتنظيم الصفوف لم يكن بيد أهالي المنطقة سوى بضع مئات من البنادق القديمة ليواجهوا بها جيشاً نظامياً مدججاً بترسانة من الدبابات والطائرات، ويفوقهم عشرات المرات في العدد والعدة.

استخدم المقاومون الأشاوس سياسة الكر والفر واستراتيجية الهجوم السريع المباغت كوسيلة فعالة للإثخان في العدو، وما ينتج عنها من غنائم وسلاح للجهاد به ضد المحتل الإيطالي.

وفي إحدى الهجمات للمجاهدين تم تطويقهم بشكل كامل بعدد مهول من الجيش الإيطالي، فوقع بين المجاهدين جرحى وشهداء كُثر، وتم أسر البقية ووقع أبطالنا الثلاثة في الأسر.

تم تكبيل أيديهم بالحديد، ومثلوا أمام المحكمة العسكرية الإيطالية، وهم يلبسون اللباس الصحراوي الليبي التقليدي وعلى رأس كل منهم طربوش عثماني، وبدأ سير المحاكمة.

فقال لهم قاضي المحكمة: عرفوا بأنفسكم ؟

فقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة السؤال تقدم أحدهم خطوة للأمام، وقال بلغة إيطالية سليمة: أنا الضابط العثماني العميد أحمد علاء الدين في خدمة مولاي السلطان، ثم أشار إلى والده، وقال: هذا والدي اللواء متقاعد محمد باشا، وهذا ابني الجندي محمد.

أصاب الذهول كل من كان في القاعة لهذه الحالة الاستثنائية التي لم يرها أحد من قبل، الجد لواء متقاعد وحفيده جندي وكلاهما تحت أمرة الوالد العميد، وذلك لقتال عدو يبعد عن ديارهم آلاف الكيلومترات في معركة خاسرة محسومة لا يوجد فيها أي نوع من التكافؤ!

ثم قام الوالد العميد بطل قصتنا بإدخال يده المكبلة في جيبه والسلاسل تثقله وأخرج ورقة رسمية فيها أمر تعينه كقائد للواء الثاني موقعة ومختومة من السر عسكر العثماني[٣].

كان من المفترض بعد هذه الوثيقة أن يتغير مجرى المحاكمة حيث إنها إثبات قطعي أنهم عسكريون فيكونون بذلك أسرى حرب، لهم قوانين محاكمة خاصة تكفلها الأنظمة الدولية، ولكن قاضي المحكمة رفض تلك الوثائق الرسمية، وأصر بمحاكمتهم كمجرمين وقطاع طرق مستنداً على أنهم لا يلبسون الزي العسكري.

قرأ بعدها المدعي العسكري التهم الموجهة إليهم وهي قيامهم في يوم ٢٦ أكتوبر عام ١٩١١م بمهاجمة الجيش الإيطالي من الخلف، وهنا قاطعه العميد أحمد علاء الدين وقال: هذا غير صحيح، وأنا أنكر هذه التهمة، بل نحن هاجمناهم من الأمام، وليس من الخلف!

فقال القاضي رئيس المحكمة: أنتم تابعون للدولة الإيطالية وأنتم قطاع طرق، وأعلنتم العصيان، فقال العميد أحمد: نحن لم نكن يوماً تابعين لكم، نحن والعرب جميعاً مواطنون عثمانيون لا نعترف بكم.

(٣) السر عسكر العثماني (وزير الحربية العثمانية).

هنا انزعج القاضي، وقال للمتهمين: هل شاركتم في الهجوم يوم ٢٦ أكتوبر؟

فقال العميد أحمد: نعم وأنا كنت قائد ذلك الهجوم.

فقال القاضي: وهل هذان (وأشار إلى والده وابنه) شاركا في الهجوم؟

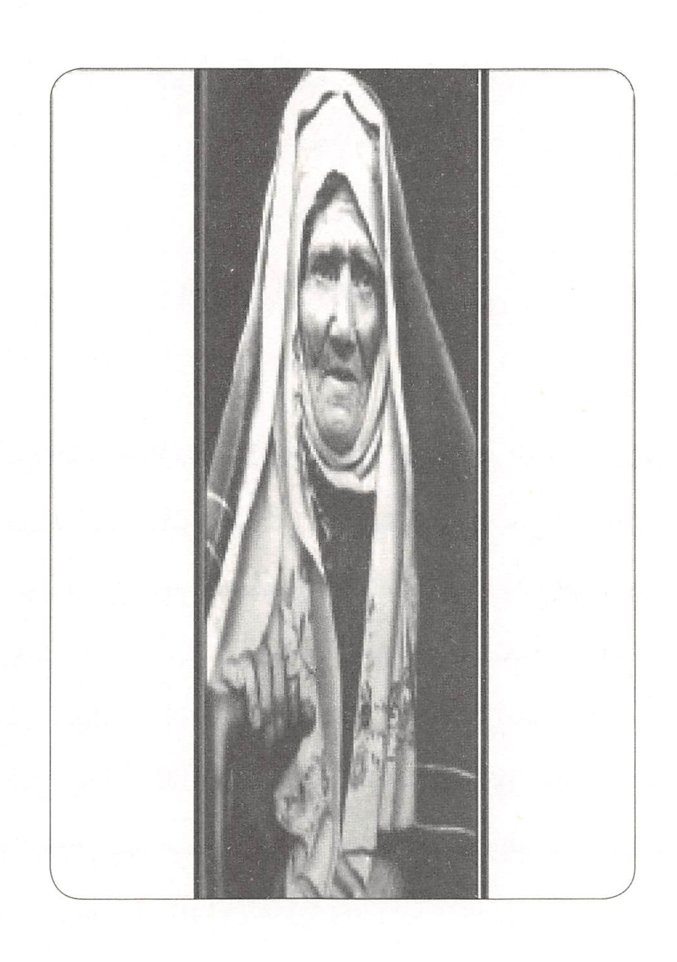
فقال العميد أحمد: نعم هذا والدي لواء متقاعد وهذا ابني جندي عثماني وكلاهما كانا تحت إمرتي في ذلك الهجوم.

هنا سكت رئيس المحكمة لدقائق، وبدأ يقلب الأوراق، وكأنه يريد إغلاق القضية بأسرع وقت ممكن، لانزعاجه من هذا الإحراج الكبير الذي وقع عليه، وبعد وقت قصير قام رئيس المحكمة واسمه انطونيو أوانكي بقراءة قرار المحكمة بإعدام الثلاثة رمياً بالرصاص، وما إن نطق بالحكم إلا وصرخ العميد بأعلى صوته: يحيى السلطان، ثم هتف والده اللواء، وقال: الله أكبر أما الجندي الحفيد، فبقي صامتاً احتراماً لوالده وجده.

ثم اقتيد الثلاثة سريعاً لخارج المحكمة وأخذوهم للساحة الخارجية، وعلى الفور تم تنفيذ الحكم وأطلق عليهم الرصاص، وقد سُمعت بالقاعة أصوات الرصاص وما كان من الصحفيين الحاضرين حين خرجوا للساحة الخارجية وشاهدوا جثث الأبطال الثلاثة إلا أن وقف الجميع دقيقة صمت ورفعوا القبعات احتراماً لهؤلاء الأبطال الثلاثة[٤].

❊ ❊ ❊ ❊

(٤) إلى جبل القاف ص١٢، نقلاً عن الباحث التركي أورخان محمد، وكان عدد من الصحفيين البريطانيين والفرنسيين حاضرين المحاكمة.



نينة خاتون (رحمها الله) ..

١٣٢٩هـ

١٩٥٥م

أم الأمهات قاهرة الروس

نينة خاتون (رحمها الله)

١٣٢٩هـ

١٩٥٥م

أم الأمهات قاهرة الروس

بين عام ١٨٧٧–١٨٧٨م وقعت حرب كبيرة بين الدولة العثمانية وروسيا، وكانت بطلتنا نينة خاتون تعيش في أرضروم في حي اسمه عزيزية، وهذا الحي يقع قريباً من أحد الحصون الهامة الذي وقع فيها قتال شديد مع الجيش الروسي، وفي ليلة السابع من نوفمبر استطاع الجيش الروسي أن يستولي على المنطقة بعد أن قتل كامل الحامية العثمانية التي قاتلت حتى الرمق الأخير، ولكن لقلة العدد انهزم العثمانيون أمام جحافل الروس الذين كانوا يفوقونهم أضعافاً في العدد والعدة، وقد تحالف مع الروس في هذه الحرب كل من رومانيا وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود.

زحف الجيش الروسي وحلفائه إلى داخل الحدود العثمانية ليحتل عدداً من المدن والقرى حتى وصلوا إلى أرضروم، التي شارك أهلها الجيش العثماني في الدفاع عنها، واستبسلوا بالقتال ضد الغزاة، وعلى أثر ذلك القتال توفى مواطن بسيط اسمه حسن متأثراً بجراح أصيب بها في المقاومة.

وكان لحسن أخت اسمها نينه وما أن عرفت باستشهاد أخيها حتى أقسمت أن تنتقم له، وفي صباح اليوم التالي تركت نينه خاتون منزلها

مودعة طفلتها الرضيعة ذات الثلاثة أشهر وهي تبكي لفراقها، وانضمت مع أهالي المنطقة في القتال في سبيل الله ضد غزاة الوطن.

كان كل عتادها في القتال بندقية أخيها حسن في يمينها، وفأس صغير في يسارها، بينما باقي الأهالي ليس معهم إلا معدات زراعة وفؤوس وعصي، وقليل من الأسلحة القديمة، وزحف الأهالي بأسلحتهم البسيطة، وكثير منهم نساء وكبار سن وفي مقدمتهم نينه خاتون، يقول المؤرخ يلماز أزتونا عن هذه الحرب (جاء الروس بكامل قواتهم إلى أرضروم، واستولوا على استحكامات عزيزية، وتمكن شعب أرضروم الذي دخل الخنادق، والذي يشكل أكثريته النساء من استخراج الروس من استحكامات عزيزية بعد صدام بطولي يفوق الخيال)[1]، تكبد الروس في هذه المعركة ألفي قتيل مما أدى إلى انسحابهم، ومقابل ذلك أستشهد مئات من الأهالي الأتراك.

وبعد انسحاب الروس وعند تفقد الأهالي للشهداء والمصابين وجدوا نينه خاتون مستلقية في دمائها ومغمى عليها وممسكة الفأس بقوة بكلتا يديها، وتم إسعافها.

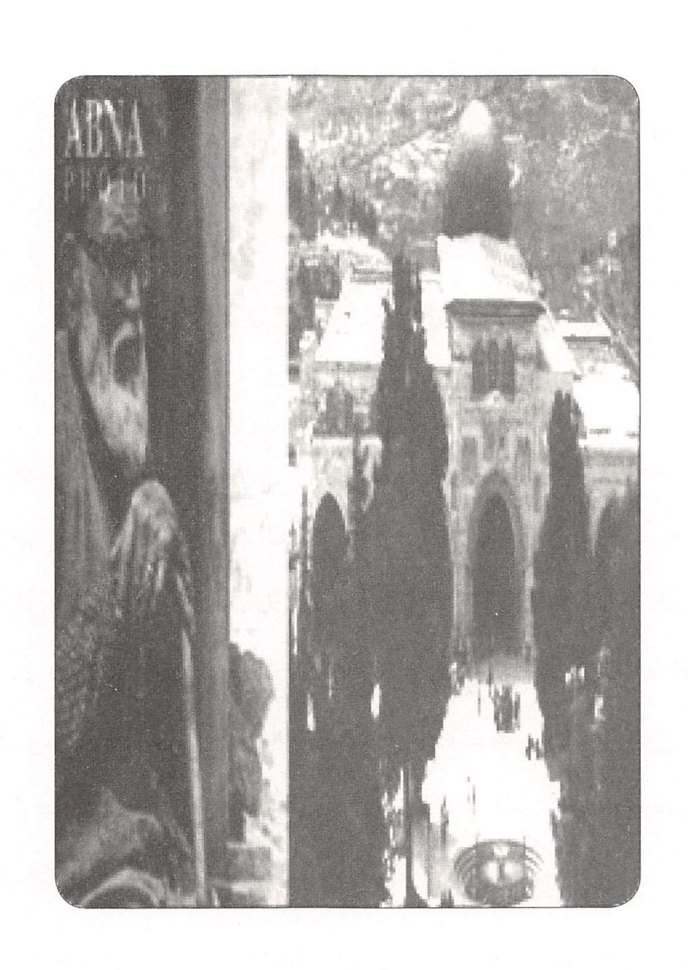
وأصبحت هذه المرأة الشجاعة رمزاً للبسالة والفداء ليس في تركيا فقط، بل في روسيا وفي باقي العالم، وعاشت بعد ذلك باقي حياتها في عزيزية حتى مات زوجها وابنها شهداء في الحرب العالمية الأولى في معركة جاليبولي الشهيرة.

(١) موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية - يلماز أوزتونا - المجلد الثالث ص١١٥، الدار العربية للموسوعات.

وبعد حرب الاستقلال التركية، قام الجنرال الأمريكي ريد جواي بزيارتها في عام ١٩٥٢م، وعندما سألها عما إذا كان من الممكن أن تشارك في حرب جديدة، أجابته بقولها: بالتأكيد سأفعل.

وقام كذلك بزيارتها قائد الجيش التركي الثالث، الجنرال «براناسيل»، ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاتها، عُرفت نينة خاتون باسم «أم الجيش الثالث»، وحصلت على لقب «أم الأمهات» في يوم الأم عام ١٩٩٥م.

* * * *



حسن إغدرلي (رحمه الله) ..

١٤٠٢هـ

١٩٨٢م

آخر حراس الأقصى

حسن إغدرلي (رحمه الله)

١٤٠٢هـ

١٩٨٢م

آخر حراس الأقصى

في منتصف القرن الماضي زار وفد سياسي تركي الأقصى المبارك يضم عدد من رجال الأعمال والصحفيين الأتراك، ويروي أحد الصحافيين قصته فيقول: أخذونا في جولة على الأماكن التاريخية في القدس وزرنا أحياء البلدة العتيقة، ثم ذهبنا إلى فناء علوي يسمونه فناء الاثنى عشر ألف شمعة، وسبب التسمية هي أن السلطان العثماني سليم الأول عندما فتح القدس كان قد أشعل في هذا الفناء اثني عشر ألف شمعة وصلى الجيش العثماني صلاة العشاء في ضوء تلك الشموع.

ثم يتابع الصحفي سرد قصته فيقول: لفت نظري رجل كبير في زاوية الفناء كان في التسعينات من عمره، وعليه بدله عسكرية قديمة جداً ومليئة بالرقع ويقف بكل شموخ وأدهشني منظره، فقلت في نفسي ما الذي جعل هذا الشيخ بهذا اللباس يقف تحت الشمس الحارقة بهذا الشكل !

ثم سألت الدليل الذي معنا عنه، فقال: منذ أن وعيت على الدنيا وأنا أراه دوماً بهذا المكان يقف حتى المساء وهو لا يكلم أحد ولا يرد على أحد، ولا أظنه إلا رجلاً يعاني من اضطرابات نفسية، وبعد هذا الجواب الذي

أثار فضولي الصحفي ذهبت بنفسي لهذا الشيخ العجوز واقتربت منه شيئاً فشيئاً حتى وصلت عنده، وقلت له: السلام عليكم يا عم، فالتفت إلي وتفحصني بعينيه، ثم قال: وعليكم السلام.

أصابني الذهول لأن لكنة لسانه تركية... فهل معقول أن هذا الشيخ تركي !

فبادرته بالسؤال عفواً يا عم من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟

فقال أنا العريف حسن رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة من الكتيبة الثامنة من الطابور السادس والثلاثين من الفرقة العشرين التابعة للجيش العثماني، ثم أعاد وكرر تقديم نفس بنفس الطريقة وبنفس الكلام.

فقلت له: ماذا.. هل أنت عثماني ؟!

فقال بكل فخر واعتزاز: نعم.

وماذا تفعل هنا ؟!

فروى الشيخ حسن قصته الحزينة وقال :

لقد هاجم الإنجليز كتيبتنا في الحرب العالمية الأولى من جبهة القناة حيث كان الجيش العثماني يحارب على جبهات عديدة رغم قلة الإمكانيات، وفي نهاية المطاف أنهزم جيشنا، واضطر للانسحاب... كانت بلاد أجدادنا تسقط واحدة تلو الآخرى، وعندما أحتل الإنجليز القدس ظلت وحدتنا هنا كقوة حرس مؤخرة لحماية هذه البلدة المباركة من السلب والنهب، وبقينا في الأماكن المقدسة وعددنا ثلاث وخمسون عسكرياً، وفي هذه الأثناء وصلنا خبر تسريح جيش الدولة العثمانية.. عندها قال لنا النقيب المسؤول عنا:

(أيها الأسود إن الدولة العثمانية العلية[1] في ضيق كبير.. جيشنا المجيد يُسرح.. والقيادة أمرتني بالعودة إلى إسطنبول.. يجب على أن أذهب وأنفذ الأوامر.. فمن أراد منكم العودة إلى بلاده فليفعل.. ولكن أقول لكم: إن القدس الشريف أمانة السلطان سليم خان في أعناقنا، فلا يجوز أن نخون الأمانة أو نتخلى عنها.. فنصيحتي لكم أن تبقوا هنا حراساً.. ولا تضعوا عزة الإسلام وكرامة الدولة العثمانية تحت أقدامكم).

فبقيت وحدتنا كلها في المسجد الأقصى.. ثم تعاقبت السنون الطويلة ومضت كلمح البصر، ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله واحداً تلو الآخر، وها أنا ذا العريف حسن لا زلت على وظيفتي حارساً على القدس الشريف واقفاً بساحات الأقصى المبارك.

امتلأت دموعه والعرق يتصبب على تجاعيد جبينه، ثم نظر إلى وقال: عندي طلب منك يا بني وهي أمانة في نفسي من سنين فهل توصلها إلى أهلها ؟

فقلت بكل تأكيد وطلبك أمر يا عم حسن.

فقال يا بني عندما تعود إلى الأناضول اذهب إلى قرية (سنجق توكات) فهي بلدة النقيب مصطفى وهو الذي أودع هذه الأمانة في عنقي، فقبل يده نيابة عني، وقل له: يا سيدي إن العريف حسن إغدرلي رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة الحارس في المسجد الأقصى ما زال حارساً في المكان الذي تركته فيه منذ ذلك اليوم، ولم يترك نوبته أبداً.. وإنه ليرجو منك دعواتك المباركة.

---

(١) الدولة العلية هو مصطلح دارج منذ القدم يطلق على الدولة العثمانية. وهو أحد أسمائها.

فقلت له: وأنا أحاول إخفاء دموعي سمعاً وطاعة يا عم سأحمل كلماتك وأمانتك له بكل سرور.

ثم سألني من أي مدينة أنت ؟

فقلت من إسطنبول فتبسم الشيخ، وقال: أنت من دار السعادة، قل لي: ما أحوال الدولة العثمانية ؟

فماذا عساني أن أرد ؟! هل أقول أنها انهارت وتقسمت لعدة دول أم أخبره بما فعله بنا إنجلترا وفرنسا ! أو أقول أن الذي كنا نعلمهم بالأمس صاروا يعلموننا اليوم ! فلم أعرف ماذا أجيب إلا أني قلت له: نحن بخير ودولتنا بخير.

فقال لي: إذا كانت دولتنا بخير لم لا تأتي وتخلص القدس من هؤلاء الكفرة ؟!

فقلت له: ستعود إن شاء الله ستعود يوماً، ثم قلت له: اسمح لي يا عم حسن علي أن أذهب، وقبلت يديه الخشنتين بحرارة، ثم قلت له: أرجوك لا تنساني من دعائك واعتن بنفسك جيداً.

فقال لي: رضي الله عنك يا بني وبلغ سلامي للأناضول وللدولة العلية.

تركت العم حسن وأنا كلي ذهول مما شاهدته عيني وما سمعته أذني، وشرحت ما حصل للدليل الذي كان معنا، وأعطيته عنواني وأرقامي، وطلبت منه أن يطمئنني ويرسل لي دائماً أخبار العم حسن.

وما إن انتهت زيارتنا الرسمية حتى ذهبت إلى مدينة توكات لأوفي بعهدي، وبعد جهد جهيد عثرت على عنوان النقيب مصطفى إلا أنه كان قد توفى منذ سنوات طويلة.

ثم تعاقبت السنون وفي عام ١٩٨٢م وأنا أعمل في وكالة الأنباء وصلتني برقية من القدس الشريف من ذلك الدليل، وفيها بعد السلام... لقد توفى اليوم آخر حراس الأقصى[٢].

*** * ***

(٢) الصحفي كان أسمه إلهان بارداكجي (رحمه الله) ونقلها الكتب والباحث التركي صالح كولن، إلى جبل قاف، ص٩٨.

- جريدة الدستور، ماهر أبو طير ٢٠١١/٣/٣١م.

* الخاتمة *

يابُنيَّ اسْمَعْ وصايا جَمَعتْ حِكماً خُصَّتْ بها خَيْرُ المِلَلْ

اطْلُبِ العِلمَ ولا تكْسَلْ فما أبعدَ الخير على أهل الكَسَلْ

واهْجُر النومَ وحصّلْهُ فَمَنْ يَعرف المطلوبَ يَحْقرْ ما بذَلْ

لا تقُلَ قد ذهبت أربابُه كلُّ منْ سار على الدّرْب وَصَلْ

في ازديادِ العِلم إرْغامُ العِدَا وجمالُ العِلم إصلاحُ العمَلْ

مات أهلُ الفضلِ لم يبقَ سوى مُقْرف أو مَنْ على الأصلِ اتّكلْ

أنا لا أختارُ تقبيل يَد قطْعُها أجملُ من تلك القُبَلْ

ليس ما يحوي الفتى من عَزْمه لا ولا ما فاتَ يوماً بالكسلْ

اطْرَح الدنيا فمنْ عاداتها تخْفضُ العالي وتُعْلي مَنْ سَفَلْ

كم جهولٍ بات فيها مُكثراً وعليم بات منها في علَلْ

كم شجاعٍ لم ينَلْ فيها المُنَى وجبان نال غايات الأمَلْ

فاتْرك الحيلةَ فيها واتكلْ إنما الحيلةُ في تَرْك الحيَلْ

لا تَقُلْ أصْلي وفصْلي أبداً إنما أصْلُ الفتى ما قَدْ حَصَلْ

فهرس

للتواصل مع المؤلف

nayef147@hotmail.com

nayef147

nayef_147

nayef_aljawini